رسول الله وخاتم النبيين

دين ودولة

القسم الثاني

الاضطهاد والهجرة والتنمية

أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري

أستاذ السيرة النبوية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (بالرياض)



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العُمري، عبد العزيز بن إبراهيم

رسول الله وخاتم النبيين/ عبد العزيز بن إبراهيم العُمري

الرياض، ١٤٣٢ هـ

٢٧٢ص؛ ١٤ سم × ٢١ سم

٥ مج

ردمك: ٩ ـ ٧٥٦٦ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (مجموعة)

٣ ـ ٧٥٦٨ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨ (ج٢)

١ ـ السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٣٢/٥١٦١

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٥١٦١

ردمك: ٩ ـ ٧٥٦٦ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ ـ ٢٠١١م

- **اسم الكتاب: رسول الله وخاتم النبيين دين ودولة الاضطهاد والهجرة والتنمية**
- **تـــأليـــف: أ. د. عبد العزيز بن إبراهيم العُمري**
- **الطبعة الأولى: ذو الحجة ١٤٣٢ هـ ـ نوفمبر 2011م**

ص. ب: 10437 ـ الريـاض 11635

E-mail: azizomary@hotmail.com

- الناشر: **بيسان للنشر والتوزيع والإعلام**

ص. ب: 5261 ـ 13 بـيروت ـ لبنان

تلفاكس: 351291 ـ 1 ـ 961

E-mail: info@bissan-bookshop.com

Website: www.bissan-bookshop.com

رسول الله وخاتم النبيين
ديـن ودولــة

القسم الثاني

الاضطهاد والهجرة والتنمية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

[آل عمران: ١٦٢ و١٦٣]

أذى المشركين للرسول ﷺ وما لقي منهم[1]

كانت بداية الأذى من أبي لهب وامرأته، وأخذ قومه وخصوصاً الزعماء العتاة المعاندون في المشاركة في أذى رسول الله ﷺ وأصحابه، كان على رأس هؤلاء عمرو بن هشام (أبو جهل) كما أسماه الرسول ﷺ بعدما أصر على الكفر والعناد، وكان يسمى عند الجاهليين أبا الحكم بن هشام.[2]

وأما زعيمة المؤذين لرسول الله ﷺ من النساء فكانت إمرأة أبي لهب، وتسمى جميلة بنت حرب.[3]

---

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، باب ما جاء في أذى قريش للنبي ﷺ وما لقي منهم، ص١٠٧؛ وانظر: البخاري في صحيحه، باب ما لقي النبي ﷺ من المشركين في مكة، ج٤/ ٢٣٨.

وانظر: سليمان بن عبدالله بن مديد السويكت، محنة المسلمين في العهد المكي، مكتبة التوبة، ط١، الرياض١٤١٢.

(٢) انظر: ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص٣٤٠، ٣٦٦.

(٣) تفسير ابن كثير، ج٢/ ٢٠٤٥.

إن هذا الأذى لرسول الله ﷺ استمرَّ عشر سنوات بعد الجهر بالدعوة، يضاف إليها ثماني سنوات بعد الهجرة حتى فتح مكة، كان يحمل لواءها عتاة القوم، فإذا سقط بعضهم كما حدث في بدر حملها آخرون، حتى أذن الله بفتح مكة والقضاء نهائياً على قوتها. في بداية الجهر بالدعوة كانت جميلة زوجة أبي لهب من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ، ولما سمعت بنزول سورة «المَسَدْ» أتت الرسول ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها حجارة فوقفت عليها وهى لا ترى رسول الله ﷺ، فوجهت حديثها لأبي بكر الصديق، وقد أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ. فقالت: (يا أبا بكر أين صاحبك فقد بلغني إنه يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر) [حجر رقيق تُسحق به الأدوية]، ثم انصرفت وهي تردد (مُذَمَّماً أَبَيْنَا وأَمْرَهُ عَصَيْنَا ودِيْنَه قَلَيْنَا)، فقال أبو بكر (يا رسول الله ﷺ أما تراها رأتك؟) فقال: ((ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني))، فكان رسول الله ﷺ يقول: ((ألا تعجبون لما يُصرَف عني من أذى قريش يسبون ويهجون مذمَّماً وأنا محمَّد)).[١]

وقد آذى أبو لهب وإمرأته أم جميل الرسول ﷺ بقية حياتهما حتى هلكا على الكفر.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٥٦؛ وانظر: أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ص٢٩٣.

كانت قريش وكفارها يصبون شتى أنواع الأذى على رسول الله ﷺ ويستهدفون ثنيه ومن معه عن الإسلام، كما كانوا يصدون الناس عن السماع لرسول الله ﷺ بعد أن انتشرت دعوته ويعقدون الاجتماعات ويحيكون المؤامرات لمنع الناس من السماع لهذا الدين، كما كانوا يوجهون أشد أنواع الأذى الجسدي والمعنوي لرسول الله ﷺ في محاولة منهم للصد عن سبيل الله.[1]

عن عمرو بن العاص قال: ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوماً ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة، ورسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فقام إليه عقبة بن أبي معيط، فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وكب لركبته ساقطاً، وتصايح الناس، فظنوا أنه مقتول، فأقبل أبو بكر يشتد حتى أخذ بضُبْعَيْ [كتفي] رسول الله ﷺ من ورائه، وهو يقول (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)، ثم انصرفوا عن النبي ﷺ فقام رسول الله ﷺ فصلى، فلما قضى صلاته مرّ بهم وهم جلوس في ظل الكعبة، فقال: ((يا معشر قريش! أما والذي نفس محمد بيده! ما أُرسلت إليكم إلا بالذبح))، وأشار بيده إلى حلقه، قال: فقال له أبو جهل: يا محمد! ما كنت جهولاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: أنت منهم.[2]

---

(١) انظر: الفصل الخاص بموقف زعماء قريش من دعوة الرسول وأذاهم له وللمسلمين في كتاب محمد الشنقيطي. (السيرة النبوية لابن حجر في فتح الباري)، ج١/ ٣٩٨.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٠٩؛ والذهبي، السيرة النبوية، ص١٦٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٠.

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: مرّ أبو جهل، فقال: ألم أنهكَ، فانتهره النبيﷺ فقال له أبو جهل: لم تنتهرني يا محمد والله لقد علمت ما بها رجل أكثر نادياً مني، قال: فقال جبريل فَلْيَدْعُ نادِيَه. قال: فقال ابن عباس: والله أن لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب. (١)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبيﷺ يصلي في ظل الكعبة، قال: فقال أبو جهل وناس من قريش، قال: ونحرت جزور [ناقة] في ناحية مكة، قال: فأرسلوا فجاؤا من سَلاها [جِلْدُ رَحِمِها] فطرحوه عليه، قال: فجاءت فاطمة (رضي الله عنها) حتى ألقته عنه، قال: فكان ينتحب ثلاثاً، يقول: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بأبي جهل ابن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة ابن أبي معيط. قال: قال عبد الله: فلقد رأيتهم قتلى في قَليب [بئر] بدر، قال أبو إسحاق: ونسيت السابع. (٢)

ومع ما لقي رسول الله ﷺ شخصياً من أذى قومه فقد كان

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٠٩؛ ورواه الطبري في تفسيره، ج١٢/٦٥٨؛ وانظر: ابن إسحاق، السيرة النبوية، ص٢١٣؛ والذهبي، السيرة النبوية، ص١٥٥.

(٢) انظر: رواية البخاري في صحيحه،كتاب المغازي، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ج٤/٢٣٨.
انظر: غزوة بدر من هذا الكتاب.

عمه أبو طالب يمنع عنه الأذى بما يستطيع، وكان لا يزال على دين قريش يحسبون له حساباً، وخصوصاً في بداية الدعوة أملاً منهم أن يكون عوناً لهم على النبي ﷺ كحال أبي لهب، لكنه كان عوناً للنبي ﷺ ومدافعاً عنه،[1] فوصله ﷺ من الأذى الشيء الكبير مع دفاع عمه عنه.

وفي مراحل متقدمة قرر المعاندون من قريش قتل النبي ﷺ، فسعى رجال منهم إلى أبي طالب فيهم أبو جهل وغيره، وقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا، وضلّل أبناءنا، فإما أن تكفه عنّا وإما أن تخلي بيننا وبينه على ما نحن عليه فنكفيك، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم.

واستمر رسول الله ﷺ في دعوته، ثم جاؤا أبا طالب مرة أخرى وذكروه بتحذيرهم الأول، وشددوا عليه وقالوا: يا أبا طالب إن لك فينا سناً وشرفاً ومنزلة، وقد نبهناك عن ابن أخيك فلم تنته، وإنا لا نصبر على شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فإما أن تكفه عنّا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين وانصرفوا. فعظم الأمر على أبي طالب وخشي من عدوان قومه له، ولم تطب نفسه أن يخذل النبي ﷺ ومع ذلك فقد كلم

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٤٦٤.

رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قومك قد جاؤني فذكر له ما قالوا، فأَبْقِ علي وعلى نفسك ولا تحملني ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء، وإنه ربما خاذله أو ضاعف عن نصرته، فكان رد رسول الله ﷺ واضحاً في الثبات على دينه، فأظهر عمه الاستمرار في الدفاع عنه وقال: يا ابن أخي افعل ما أحببته فو الله لا أسلمك لشيء أبداً.[1] ثم جاءت قريش مرة أخرى إلى أبي طالب ومعهم (عمارة بن الوليد) أحد شباب قريش، فقالوا: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد ـ أشد وأقوى ـ فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامك فنقتله، فقال أبو طالب: والله بئس ما سألتموني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم،وأعطيكم ابني تقتلونه؟. هذا والله لن يكون أبداً،[2] واشتدت القطيعة بين أبي طالب وبين قومه ثم لجأت قريش إلى محاولة إغراء رسول الله ﷺ بالشهوات والحياة الدنيا، ذلك أن عتبة بن ربيعة، وكان من سادات قريش رأى النبي ﷺ جالساً في المسجد الحرام فقال لسادة قريش: يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا (يعني الرسول ﷺ) فأعرض أموراً لعله يقبل بعضها ويكف عنّا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام حتى جلس إلى رسول الله ﷺ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦٦.
(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٢.

فحدثه وقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت في العشيرة والمكان والنسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فأسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال ﷺ: ((قُلْ يا أبا الوليد أَسْمَعُ)) قال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً [عملاً من الجِنّ] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب عليك التابع على الرجل حتى يداوى منه .. حتى إذا فرغ عتبة بن ربيعة من حديثه والرسول ﷺ يسمع إليه بكل أدب ناداه بأحب الألقاب إليه قائلاً: ((أفَرِغْتَ يا أبا الوليد؟)) قال: نعم، قال: فأسمع مني. قال: أفعل، فقرأ عليه رسول الله من سورة فصلت ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [فصلت]. ومضى رسول الله ﷺ حتى وصل إلى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت]، حتى إذا أتى الرسول ﷺ السجدة في قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى

خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ [فصلت] وسجد رسول الله ﷺ فاندهش عتبة مما سمع من رسول الله ﷺ ومن سجوده، وقيل إنه لما وصل الرسول ﷺ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت] أمسك عتبة بفم رسول الله ﷺ وأخذ يناشده ويصيح: أنشدك بالله والرَّحِم، ثم استند إلى يديه وأخذ يغرق في التأمل والتفكير، ثم عاد إلى الملأ من قريش فلما رأوه مقبلاً عليهم قال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

فجلس إليهم مطرقاً، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه،!! فاعتزلوه؟. فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ، فان تُصِبْهُ العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكُه مُلكُكم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا سحرك يا أبا الوليد بلسانه! قال: رأي فأصنعوا ما بدا لكم.[1]

والغريب أن عتبة بن ربيعة تيقن صدق رسول الله ﷺ،

---

(١) انظر القصة مع اختلاف في تفصيلاتها عند:
ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/ ٥٣.
وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٠٨؛ الذهبي، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٤.

وعرف القرآن الذي جاء به وسمعه منه مباشرة، ومع ذلك فقد قتل معانداً مشركاً في صفوف قريش يوم بدر،[١] رغم تحذيره لقومه، وأن محمداً سينتصر على من عاداه. وهذا الموقف يبيِّن صدق رسول الله ﷺ في دعوته، وأنه ما جاء يطلب الدنيا والملك ولا النساء، ولكنه رسول من عند الله.

كان أبو جهل (الحكم بن هشام) من أشد الناس إيذاء للرسول ﷺ سواء بنفسه أم بدفعه للآخرين وتحريكهم لإيذاء النبي ﷺ. ذكر أن الوليد بن المغيرة وهو والد خالد بن الوليد سمع القرآن من النبي ﷺ فرقَّ ولان قلبه، فعلم بذلك أبو جهل، فأراد أن يبعده من الخير ويحركه في اتجاه معاداة النبي ﷺ وأذاه، فتوجه إلى الوليد بن المغيرة وقال له أبو جهل: يا عم يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتتعرض ما قِبله.

فغضب وقال: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، فقال أبو جهل بعد أن استشاره: فقل في القرآن قولاً يبلغ قومك أنك منكر له قال: وماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيره مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٤٢.

مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وانه ليحطم ما تحته!![1]

ولم يعجب هذا الكلام أبا جهل فحركه مستثيراً قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال دعني أفكر فيه. وبعد جهد وتفكير وتقدير قال: إنْ هذا إلا سحر يؤثر، ألم تروه يفرق بين الرجل وأهله، والولد ووالده. وفي الوليد وقوله نزل قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر].[2] ولما سمع أبو جهل بقوله تعالى: (عليها تسعة عشر)، وهو المحرك للوليد تهكم أبو جهل وقال: يزعم محمداً أن جنوده الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم تسعة عشر وأنتم أكثر الناس عدداً، أفيعجز كل رجل منكم عن رجل منهم؟[3]

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، ج٢/٥٠٦؛ وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص١٧٩.

(٢) ابن كثير، تفسيره، ج٢/١٩٣٨.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣١٣؛ وتفسير ابن كثير، ج٢/١٩٣٧.

فأنزل الله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر]. وهكذا يتنزل القرآن حياً على رسول الله ﷺ في حال هؤلاء المعاندين، يرصد ما قالوا ويبادرهم برد من لدن حكيم عليم. إذا استشعر الإنسان القصة والرد الإلهي على هؤلاء علم أنه قرآن محكم منزَّل على رسوله، منجَّم حسب الحوادث، آيات تتلى إلى يوم القيامة، وقد كان أبو جهل وغيره من عتاة الكفر وأسياد مكة المتكبرين، يتواصون بعدم السماع لكتاب الله فينزل على رسوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت].

كما أنهم إذا سمعوا تكبروا فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت]. وحاولوا أن يسخروا من الرسول ﷺ ويستنقصونه ببشريته وفعله ما يفعل الناس فكان رد القرآن عليهم واضحاً ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ

ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا (٢٠)﴾ [الفرقان] وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ (٦)﴾ [فصلت] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ (٨)﴾ [الأنبياء].

كما أنكر بعضهم أن يبعث الله بشراً، وقالوا لو كان ملكاً فرد عليهم القرآن ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]، وطالب بعضهم أن يكون معه ملك، فجاء قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨)﴾ [الأنعام]، وطلب أولئك المعاندون آيات وعلامات، ليس بحثاً عن الحق ولكن عناداً ومكابرة قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥١) قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ (٥٢)﴾ [العنكبوت]، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ (١٣٣)﴾ [طه].[1]

---

(١) راجع تفسير الآيات عند ابن كثير، ج٢/ ١٢٣١.

كما أتهم الرسول ﷺ بأنه يتعلم القرآن من بعض النصارى في مكة أو من غلمانهم،[1] فرد عليهم القرآن: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل]، وقد حاولوا تفريق جمع المسلمين فاتهموا أتباع الرسول ﷺ بأنهم الضعفاء وأرادوا منه فراقهم ليجلسوا معه، فنهاه القرآن عن ذلك وأمرهم بالثبات، وأمر الرسول ﷺ بالصبر معه ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام]. وأكد القرآن على أن الدعاة يد واحدة، وأمر الرسول ﷺ بالصبر معهم: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]. وهكذا يتنزل القرآن حياً في كل مناسبة يرد عليهم.

ولم يكتف كفار قريش باختراع العوائق والعقبات أمام الرسول ﷺ، بل استعانوا بيهود وخبرتهم، والذين أصبحوا أعداء رسول الله ﷺ وهو في مكة، بإعانتهم لقريش قبل الهجرة وبعدها، وطلبوا منهم أن يسألوه عن ثلاثة أشياء معجزة، عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، في محاولة من يهود وقريش لتعجيز النبي ﷺ، فنزلت الآيات على

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج١/ ١٠٧٧.

الرسول ﷺ في سورة الكهف جواباً على أسئلتهم ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ [الكهف] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)﴾ [الإسراء]. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾ [الكهف].[1]

وكان القرآن يتنزل على الرسول ﷺ في تلك المواقف ليرد عليهم، كما زعموا أن لو كان نبياً لما كان محمد، ولكان رجال آخرون هم بها أولى كما زعموا، ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢)﴾ [الزخرف].

واتهموا الرسول ﷺ بأنه جاء بأساطير الأولين ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦)﴾ [الفرقان]، واتهموه بالمجنون ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾ [الحجر] ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم]، ورد القرآن عليهم ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦)﴾ [القلم]، واتهموه بأنه

(١) انظر: تفصيل ابن هشام في السيرة، ج١/ ٣٠١: ٣٠٩.

ســاحــر ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾ [ص]، وطالبوا بأمور مختلفة أخرى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان]، واتهموه بأنه كاهن ويأتي بالقرآن من عنده وهو من سجعه، فتحداهم الله سبحانه وتعالى أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو سورة في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود]، واتهموه بالشعر وقول الأحلام ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنبياء]، كما دافع القرآن عنه وعن استهزائهم بالنبي وذكره بالأنبياء قبله ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام]، وكان القرآن الكريم يذكر الرسول ﷺ بأن من قبله من الأنبياء نالوا حظهم من الأذى واستُهزئ بهم من أقوامهم.

وكان من المجادلين للرسول ﷺ والمؤذين له أُبَيّ بن خلف الذي أخذ عظماً بالياً وأخذ يفته أمام الرسول ﷺ ويقول: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أَرِمَ(١) فينزل على الرسول ﷺ رداً عليه وعلى أمثاله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ

---

(١) أَرِمَ: أي بلي وتحلل ١٦ ـ ١٩.

بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس]، وكان أُبي بن خلف يشتد في أذى الرسول ﷺ، وخصوصاً إذا طلب منه المشركون ذلك، ويحركونه وقد توجه عقبة بن أبي معيط إلى أُبي بن خلف، وقد رآه يسمع من النبي ﷺ، فاشتد عليه وطلب منه أذى النبي ﷺ، وإلا فإنه سيقاطعه، فذهب أبي بن خلف إلى النبي ﷺ وآذاه[1] فنزل على الرسول ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان]. وقد قتل أبي بن خلف على يد الرسول ﷺ في غزوة أحد وهو راكب فرساً كان يركبه في مكة ويتوعد الرسول بقتله على الفرس، فأخبره ﷺ أنه قاتله على الفرس نفسه، فكان موت أُبي بن خلف على الفرس الذي كما وعد الرسول ﷺ.[2]

وكان أُمية بن خلف إذا رأى النبي ﷺ سار خلفه وبدأ يسبه ويلمزه فنزل على الرسول ﷺ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج٢/ ١٣٥٧.
(٢) انظر: غزوة أُحُدْ، من هذا الكتاب.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾ [الهمزة].

وفي محاولة من المشركين لحل وسط مع الرسول ﷺ كما يزعمون اجتمع نفر من أشرافهم فقالوا للرسول ﷺ: يا محمد هلم نعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشرك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد أخذنا منه بحظ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه.(١) وهذا العرض يدل على شكهم فيما يعبدون واستهانتهم بقضية التوحيد، التي جاء بها محمد ﷺ والنبيون من قبله، فنزل على الرسول ﷺ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

ومع كل الأذى المعنوي فإن الرسول ﷺ تعرض لتهديد قريش الجسدي، فقد أورد ابن هشام: (قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهُركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاّت والعزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطَأَنَّ على رقبته أو لأُعفِّرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله وهو يصلي زعم ليطأ على رقبته قال فما فَجِئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه قال: فقيل له: ما لك فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٦٢.

وأجنحة، فقال رسول الله: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)[1] فأنزل الله عزّ وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴿١٩﴾﴾[2] [العلق].

وفي رواية للبخاري أن عروة بن الزبير سأل عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول ﷺ قال: (رأيت عقبة ابن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيان من ربكم).[3] وروى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود قال: (بينما رسول الله ﷺ عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور ابن فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه. قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم انظر لو

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١٠/ ٢٩٩.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢/ ٢٠١١.
(٣) رواه البخاري، وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٠.

كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأُمية بن خلف، وُعقبة بن أبي معيط وذكر السابع ولم أحفظه، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمّى صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب قليب بدر) . (١)

المضطهدون الأوائل والشهداء

لم يكتف المشركون بأذى الرسول ﷺ بل صبوا جام غضبهم على أصحابه في محاولة منهم لإرجاعهم عن الإسلام وصدهم عن دين الله وتأديب بقية قريش وخصوصاً الشباب وتخويفهم بما يمكن أن يحصل لهم لو أسلموا كما حصل للمؤمنين والرسول الله ﷺ، فكان الأذى البدني لمن اتبع

---

(١) من رواية البخاري في صحيحه،كتاب المغازي، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ج٤/٢٣٨. وانظر غزوة بدر من هذا الكتاب.

الرسول ﷺ جزاءً في الصد عن سبيل الله وإبعاد الناس عن دينهم، لكن هذا لم يؤثر فيهم، وصمد الأبطال منهم، فكانوا أمثلة للمسلمين عبر الزمان تُحتذى في الصبر والتحمل والشهادة في سبيل الله والصبر على دينه، والأمثلة على هؤلاء الأبطال رجالاً ونساءً كثيرة ومنها:

استشهاد سمية (أم عمار)

كانت سمية بنت خياط زوجة ياسر وأم عمار، زوجها ياسر من عنس باليمن، كان حليفاً لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، فزوجه من جاريته سمية، فولدت له عماراً، ثم أعتقها حذيفة ومات بعد ذلك. وكان ياسر وأخوه عبد الله وزوجته سمية وابنه عمار من أوائل الداخلين في الإسلام من المستضعفين،[1] وكان أبو جهل قد تسلط على آل ياسر، ياسر وزوجه سمية وابنهما عمار، وكان يشتد عليهم بالعذاب ويغرى بهم السفهاء والشبان، وحيث كان مواليهم من بني مخزوم قد غضبوا لإسلامهم، فقد كانوا يشاركون في تعذيبهم، حيث يُخرجون في حر الظهيرة إلى بطحاء مكة فيعذبونهم في رمضائها، ويجلدونهم أمام الناس زيادة في النكال وتهديداً لبقية المسلمين، فكان رسول الله ﷺ يمر بهم وهم على تلك الحال فلا يستطيع خلاصهم فيعزيهم بقوله ﷺ:

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٦١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٤.

((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))،[1] وقد اشتدّ العذاب يوماً بآل ياسر جميعاً وحاول أبو جهل الكلام على النبي ﷺ فأغلظت سمية له القول، فأخذ الحربة وطعنها في موضع عفتها أمام زوجها وابنها فاستشهدت في سبيل الله. وكانت هذه المرأة أول كواكب شهداء أمة محمد ﷺ وسابقتهم ومقدمتهم،[2] لتبقى مثالاً للمرأة المسلمة إلى يوم القيامة. وقد ورد في حديث لعثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «أقبلت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيدي نتمشى بالبطحاء حتى آتى على آل عمار بن ياسر فقال أبو عمار: يا رسول الله الدهر هكذا فقال له النبي ﷺ: ((أصبر اللهم أغفر لآل ياسر وقد فعلت)).[3] ثم مات ياسر تحت التعذيب، وقد عاش عمار بعد ذلك تحت التعذيب. وقد عذبه المشركون في أحد الأيام وأجبروه أن ينال من النبي ﷺ، وأن يذكر آلهتهم بخير وهو تحت التعذيب، فلما أفلتوه ذهب للنبي ﷺ حزيناً فقال له: ((كيف تجد قلبك؟)) قال: مطمئناً بالإيمان قال: ((فإن عادوا فعد))، ونزل قوله تعالى ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل].[4]

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٢٠.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٤.
(٣) الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٣٠١.
(٤) انظر: تفسير الطبري، ج٧/ ٦٥١.

بلال بن رباح ﷺ

بلال ﷺ من أصل حبشي، أمه حمامة، وكان مولى لأمية ابن خلف الجمحي أحد عتاة قريش وجبابرتها، من أشدهم أذى لرسول الله ﷺ ولأصحابه،[1] أسلم بلال مبكراً، وآمن برسول الله ﷺ فلما علم أُمية بن خلف بإسلامه آذاه أشد الأذى، وعذبه، وأذن لبقية مشركي مكة بتعذيبه، فكان أمية بن خلف يخرج بلالاً ﷺ إلى الشمس في بطحاء مكة ورمضائها وحرها الشديد فيضع بلالاً مجرد الظهر والبطن على الحصباء، ثم يضع الحجارة الثقيلة على صدره، ويهدده بأنها لا تُزل عنه حتى يكفر بالله وبمحمد ﷺ، ويعبد اللات والعزى، ولكن بلالاً أصر على التمسك بالدين، والصبر على الأذى، فيردد: أحد أحد! فيزيد غيظ القوم عليه ويتشددون بالعذاب، وكان يقول (لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم لقلتها)،[2] كانوا يربطون حبلاً في عنقه ويدفعون به إلى الصبيان ليجروه على الشوك والحجارة في مكة، فلا يزداد إلا إيماناً وتمسكاً بدين الله، (مر به أبو بكر الصديق ﷺ، وأُمية ابن خلف يعذبه عذاباً شديداً فقال لأمية بن خلف : ألا تتقي الله في هذا المسكين؟ حتى متى؟ فقال أمية أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى فقال الصديق ﷺ: أفعل. فعوضه أبو بكر ـ دفع له مالاً ثمناً لـه ـ وكـان عمـر يقـول: (أبـو بكـر سيدنـا واعتـق

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٤.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣١٨.

سيـدنا).[1] وصار بلال ﷺ بعد عتقه من أكثر الناس التصاقاً برسول الله ﷺ. وقد قال ﷺ: ((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكل ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال)).[2] وبعد الهجرة أصبح مؤذن رسول الله ﷺ واشتهر بهذا اللقب، وبشره الرسول ﷺ بالجنة، كما شارك في جيوش فتح الشام وأصبح من أمرائها في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ[3] وكان من صالحي المسلمين ومعلميهم رضي الله عنه وأرضاه.

خباب بن الأرت ﷺ

كان رقيقاً لأم أنمار الخزاعية، حداداً يكسب من عرق جبينه، وقد دخل الإسلام مع الأوائل، فكان صابراً محتسباً، وقد بدأ مشركو مكة بكافة الضغوط عليه لعله يرجع عن الإسلام، يروي خباب: (كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاص ابن وائل دين فأتيته أطلبه فقال: والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، قلت: والله لا أكفر به أبداً حتى تموت ثم تبعث قال العاص: فإني إن بعثت كان لي مال، ثم مال وولد، فتأتيني

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب مناقب بلال بن رباح مولى أبي بكر الصديق ﷺ، ج٤/ ٢١٧.

(٢) رواه أحمد في مسنده، ج٢/ ١٢٠.

(٣) عمر بن شيبة، تاريخ المدينة، ج٣/ ٨٢٦؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/ ١٦٥.

فأقضيك فأنزل الله قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم]،[1] وأصر خباب على إسلامه، فأخذ العاص بن وائل وبقية كفار قريش يعذبونه بأمر من مالكته، فكانوا يضجعونه على الحجارة المحماة حتى يتأثر لحمه وعصبه، وقد أثرت شدة العذاب في الكثيرين إلا في خباب ﷺ (لم يكن أحد إلا أعطى ما سألوه يوم عذبهم المشركون إلا خباباً كانوا يضجعونه على الرضف فلم يستبقوا منه شيئاً)،[2] أي يحصلوا على شيء، ويروى خباب يقول: (أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ظهري).[3] بقي أثر العذاب في ظهر خباب وجسده وقد رآه أصحابه بعد تقدمه في العمر ﷺ.

وقد اشتكى خباب لرسول الله ﷺ في يوم من الأيام شدة ما يلقى من مالكته ومن مشركي مكة ورسول الله ﷺ متوسد في ظل الكعبة، فقال: يا رسول الله ﷺ ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال رسول الله ﷺ وهو محمر الوجه: (كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعَل فيه فَيُجاءُ بالمنشار فتوضع على رأسه فيشق باثنتين ما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمة من عظم أو عصب، وما يصرفه ذلك عن

(١) من رواية البخاري في صحيحه، باب ذكر القين والحداد، ج٤/ ١٣.
وانظر: تفسير ابن كثير للآية، ج٢/ ١٢٠٠.
(٢) محمد الصوياني، السيرة النبوية، ص ٦٨ و(الرضف) الحجارة المحماة.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٥٧.

دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه).[1] وقد أخذت مولاته أم أنمار الخزاعية يوماً حديده فأحمتها فوضعتها على رأسه حتى شم منها رائحة الشواء، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا له فقال: اللهم انصر خباباً، فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها: اكتوي، فجاءت إلى خباب ليكويها)،[2] فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها بناءً على طلبها، ـ حيث كانت تطلب ذلك للشفاء. لقد عاش خباب رضي الله عنه فرأى بعينه كيف يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت وكيف أصبحت تلك المناطق جزءاً من الدولة الإسلامية.

كما كان هناك عدد من الإماء نالهن عذاب مواليهن من قريش، منهن حمامه أم بلال بن رباح، وأم عنيس، وزنيرة، وجارية بني المؤمل والنهدية وابنتها، وكانتا جاريتين لامرأة من بني عبد الدار من قريش،[3] وقد تعرضن جميعهن للأذى ومحاولة حرفهن عن دينهن وقد كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه دور في إنقاذهن بأن اشتراهن من أهلهن وأعتقهن في سبيل الله.[4]

---

(١) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ، ج٤/ ٢٣٩.

(٢) انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٣٠٦.

(٣) محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤٦.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣١٩.

سعد بن أبي وقّاص ﵁ ووالدته

كان سعد بن أبي وقاص من أوائل المؤمنين برسول الله ﷺ، وكانت عنده أمٌّ هو أبرّ الناس بها قبل إسلامه، فلما أسلم زاد في بره بها ولم ينقص، فلما علمت بإسلامه ـ وكان مطيعاً لها ـ أرادت بحكم معرفتها ببره واستجابته لأمرها أن تثنيه عن الإسلام وتوقعه في حيرة، فقالت يا سعد: لَتَدَعَنَّ هذا الدين أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فقال لها: لا تفعلي يا أُمَّهْ فإني لا أدع ديني لشيء، فلما رأت إصراره بدأت إضراباً عن الطعام والشراب، فمكثت يوماً وليله لم تأكل فأصبحت جاهدة، فاستمرت على ذلك إلى اليوم الثالث وهي لم تأكل، فأصبحت تريه حالها وجهدها لعله يترك دينه، فلما رأى ذلك قال: يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني لهذا الشيء، فإن شئتِ فكُلي وإن شئت فلا تأكلي.(١) وكانت تذكره بأمر دينه ببر الوالدين وهو يدرك أن الدين لا يُترك لأجل ذلك ونزل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان].(٢)

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ١٠٩؛ ابن كثير، تفسيره، ج٢/ ١٤٢٦.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج٢/ ١٤٦٢.

وفي آخر السورة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (٣٣)﴾ [لقمان]، لقد كانت قصة سعد مع أمه مضرب مثل للأمة في الأوليات، فمع ما للوالدين عموماً وللوالدة خصوصاً من وصايا في آيات الله وأوامر رسوله ﷺ، إلا أنها لا تتعدى إلى الكفر، ولا تكون وسيلة ضغط لذلك، وقد عاش سعد بعد ذلك مع رسول الله ﷺ في كل مغازيه فكان يفتخر به ويقول له (هذا خالي فليُرني أمْرُؤٌ خاله)، [1] كما قال له في غزوة أُحُد وهو يدافع عن الرسول ﷺ (ارْمِ سَعْدُ فداك أبي وأمي). [2] وقد عاش رضي الله عنه حتى قاد جيوش المسلمين في القادسية وفتح المدائن عاصمة الفرس. [3]

عبد الله بن مسعود (الجاهر بالقرآن) رضي الله عنه:

كان من هذيل ويقيم في مكة، وكان غلاماً يرعى الغنم لأحد رجالاتها، وحدث لقاؤه بالرسول ﷺ كما وصف في قوله: (كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط، فمر بي

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٩٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري، ج٤/ ٢١٢، باب مناقب سعد بن أبي وقاص، وباب إذ هَمّتْ طائفتان منكم أن تفشلا، وانظر: غزوة أحد من هذا الكتاب.

(٣) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٦٣؛ الطبري، تاريخه، ج٤/ ١٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٢/ ٢١٤.

رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم ولكني مؤتَمَنٌ، قال: فهل من شاةٍ لم يَنْزُ عليها فحل؟ فأتيته بشاة فمسح ضرعها فنزل لبن فحلبه في إناء فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: أقلصْ فقلص قال: ثم أتيته بعد فقلت: يا رسول الله ﷺ علمني من هذا القول قال: فمسح رأسي وقال ((يرحمك الله فإنك عليم معلم))،[1] فكان من أوائل المسلمين وهو مستضعف أجير لعقبة بن أبي معيط أحد أشد كفار مكة، ومن أكثرهم عداء لرسول الله ﷺ، وكان يقول: لقد رأيتُني سادسَ ستةٍ ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا.[2]

وقد كان عدد المسلمين أكثر من ذلك بكثير، إلا أن كثيراً منهم لا يعرف بعضُهم بعضاً نظراً لسرية الدعوة، والكتمان في هذه المرحلة.

كان ابن مسعود ضعيف البدن، وكان أعداء رسول الله ﷺ يتجرأون على عبدالله بن مسعود ويؤذونه، ومع ذلك فهو صابر شجاع محتسب.

وقد اجتمع الصحابة (رضوان الله عليهم) يوماً في مكة فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجْهَر به قط، مَنْ رَجُلٌ يُسمعهم؟، فقال ابن مسعود: أنا! قالوا إنا نخشاهم عليك، إنما

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٤٦٥.
(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٣٧.

نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه قال ابن مسعود: دعوني فإن الله يمنعني، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها حتى صار عند المقام، فقرأ رافعاً صوته من سورة الرحمن واستمر في قراءتها، فقالوا ماذا قال ابن أمّ عبد فقال بعضهم: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ﷺ فقاموا إليه يضربونه في وجهه وجسمه حتى بلغ ما شاء الله إلى أن يبلغ في تلاوته، ثم انصرف إلى أصحابه وقد تأثر وجهه بضربهم، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأعاودنهم قالوا: لا حَسْبُك قد أسمعتهم ما كانوا يكرهون،(١) وبذلك يكون عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بمكة علانية أمام قريش.(٢)

مصعب بن عمير رضي الله عنه (٣)

كان من أنعم غلمان مكة، أمه من الأثرياء، ووالده ذا مال وفير، وكانا يحبانه حباً شديداً ويدللانه حتى وصف الرسول ﷺ حاله تلك بقوله: ((ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمُة ولا أرقّ حُلةً

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣١٤.
(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٣٨؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٤٦٧.
(٣) وضع البخاري في كتاب المناقب، باب ذكر مصعب بن عمير، ج٤/ ٢١٦.

ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير))،[1] ولِدَلالِهِ كانت أمه تضع الطعام والشراب عند رأسه عند النوم، فإذا استيقظ أكل وشرب، وعندما علم بدعوة الرسول ﷺ إلى الإسلام ـ وكان مستخفياً في دار الأرقم ـ دخل عليه وأسلم وكتم إسلامه خوفاً من أمه، فكان يتردد على رسول الله ﷺ فيتعلم منه، فرآه عثمان ابن طلحة يصلي سراً فاخبر أمه، فأخذوه وحبسوه وأجاعوه وضيقوا عليه في حبسه، حتى خرج مهاجراً إلى الحبشة في الهجرة الأولى.[2]

لقد أؤذي ومُنع مما كان ينعم به وأُجيع وحُبس، ومع ذلك فضلرضي الله عنه الإسلام على رغد العيش، وآثر الآخرة على الدنيا، ولما بايع أهل المدينة الرسول ﷺ بيعة العقبة الأولى بعث معهم رسول الله مصعب بن عمير أول سفير في الإسلام فكان نعم الداعية والمعلم لأهل المدينة، وقد قدم بهم قبل بيعة العقبة الثانية[3] التي بايعوا فيها الرسول ﷺ على الهجرة والحماية.

وقد شهد أُحداً مع رسول الله ﷺ، وحمل راية رسول الله، واستشهد وهو يحملها وفيه نزل قوله تعالى ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ

---

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣/ ١١٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٦٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٣/ ١٠.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٣١؛ ابن سعد، السيرة من الطبقات الكبرى، ج١/ ٢٢٠؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٤٧.

صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]. وكان متزوجاً حمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب بنت جحش وابنة عمة رسول الله ﷺ.[1]

(١) انظر: البخاري، صحيحه، ج٤/ ٢٥٢، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢٢؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٢.

الهجرة الأولى إلى الحبشة(١)

أشتد الأذى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه،وكان الرسول ﷺ يواسي أصحابه ويأمرهم بالصبر ويضرب لهم الأمثلة في أتباع الأنبياء السابقين، وكان القرآن يتوالى نزولاً على رسول الله ﷺ بقصص الأمم السابقة ونصر الله للمؤمنين، وكان يعزيهم ويفتح أمامهم باب الأمل واسعاً، في وقت كان الرسول ﷺ يؤكد لأتباعه أنهم منتصرون، وأن الله سبحانه وتعالى سينشر هذا الدين في كل مكان، وكان هدفهم في هذه المرحلة المحافظة على الدين وتقديمه على كل شيء، ولو أدى الأمر لترك مكة (فراراً بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان).(٢) وكان

(١) انظر: العودة، سليمان بن حمد، الهجرة الأولى في الإسلام (فقه المرويات)، ط١، دار طيبة، الرياض ١٤١٩.
أبو بكر، علي الشيخ أحمد، معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة، ط١، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٣هـ.

(٢) انظر البخاري، صحيحه، كتاب المغازي، باب هجرة الحبشة، ج٤/ ٢٤٤.

الرسول ﷺ على معرفة بالممالك المجاورة لبلاد العرب، وبأوضاعها الدينية والسياسية ومدى العدل بين ملوكهم وأنظمتها واحترامها للإنسان وحقوقه، ومع ارتباط الرسول ﷺ بالله وثقته به وتوكله عليه، فقد كان يأخذ بالأسباب ويأمر بها، وهذا جزء من الدين الذي جاء به، ولذلك فكر الرسول ﷺ في ملجأ يحتمي به المسلمون، ودار هجرة تحميه سواء دار الهجرة المؤقتة أو الدائمة بصحبة الرسول ﷺ، وقد كانت الآيات القرآنية تنزل على الرسول ﷺ تشير إلى سعة أرض الله، وإلى الصبر وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر]،[1] وفي قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت].[2] كما أشير إلى الهجرة في وقت متأخر.[3] وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء].

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا الملجأ والمخرج بما يعلمه من أحوال الأمم فقال ﷺ لأصحابه: ((لو خرجتم لأرض

---

(١) انظر: ابن كثير تفسيره، ج٢/ ١٦١٦.

(٢) انظر: ابن كثير تفسيره، ج٢/ ١٤٤١.

(٣) ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٥٢٢.

الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما انتم فيه)). [١]

كان واضحاً في توجيه الرسول ﷺ أن هذا الملجأ مؤقت، وليس دائماً، وأنه لن يصحبهم، بل تكون صحبته في المهجر والمقر الدائم، كما كان واضحاً أنه ﷺ كان يبحث عن الأمان لأصحابه، وأنه أخبرهم بحال الحبشة وملكها، وأنه عادل لا يظلم عنده أحد، وأن للعدل قيمة عنده، وليس كحال أهل مكة، وقد كانت هذه معجزة للرسول ﷺ كما أخبر: فلم يظلم منهم أحد عند النجاشي، رغم محاولات قريش المتكررة، وكانت الحبشة معروفة للقرشيين، حيث يسافرون إليها للتجارة وأشار رسول الله ﷺ على أصحابه ـ وقد كثروا وزاد عليهم الأذى ـ بأن يهاجروا إلى الحبشة، وكان هذا التوجيه لعامة المسلمين القادرين خوفاً عليهم من الفتنة، وكان أول ما ينطبق عليه أمره آل بيته من المسلمين ﷺ، فكان من هؤلاء المهاجرين الأوائل ابنته رقية وزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه، [٢] وغيرهما من المسلمين. ولم يكونوا من المستضعفين وحدهم، بل الأشراف هم الأوائل. فخرجوا متسللين سراً وهم من الطبقات كافة، فيهم الفقير والغني الصغير والشاب، الرجل والمرأة، وكان عددهم

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٠.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٤.

أربعة عشر رجلاً وامرأة،[1] منهم الزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وأبو حذيفة بن عتبة، وأبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة، وعامر بن ربيعة وعثمان بن مظعون، وسهيل بن بيضاء، وأبو سمرة أبي رهم، وسهلة بنت سهيل بن عمرو، وليلى بنت أبي خثمة وغيرهم.[2] وقد وصل هؤلاء المهاجرون إلى الحبشة ولقوا من ملكها النجاشي أصحمة كل إكرام، وسمع منهم وحماهم، ومنع الأذى عنهم، وقد أسلم رضي الله عنه وصلى عليه الرسول ﷺ[3] عند موته.

وكان قبل ذلك من علماء النصارى، ولا شك أنه ناقش المسلمين عن ما جاء به رسول الله ﷺ وعن دعوته، وأنه نتيجة ذلك دخل في الإسلام وآمن به وصدقه. وقد قرن البخاري باب الهجرة إلى الحبشة في كتاب المغازي بباب آخر أسماه باب موت النجاشي ذكر فيه خمسة أحاديث كلها تدل على إسلام النجاشي، ومنها أن النبي ﷺ حين مات النجاشي قال: ((مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم))،[4] وأنه ﷺ

---

(١) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص١٣٠، ١٣١.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٤.

(٣) صحيح البخاري، باب موت النجاشي، ج٤/ ٢٩٦؛ وانظر: ما جاء في أمر الحبشة، وأمر النجاشي وقصة إسلامه عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٦٥.

(٤) البخاري صحيحه، باب موت النجاشي، ج١/ ٢٤٦.

قال: ((استغفروا لأخيكم))،[1] وفي اليوم الذي مات فيه النجاشي صفّ ﷺ المسلمين في المصلى فصلى عليه وكبَّر أربعاً،[2] وقد قالت أم سلمة: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورْنا بها خير جار ـ النجاشي ـ أمنّا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه).[3]

وكانت هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة النبوية.[4] وقد استمرت بضعة أشهر، وصلت في نهايتها أخبار غير صحيحة بأن قريشاً قد أسلمت، فعاد كثير منهم إلى مكة، وعند وصولهم اكتشفوا أن الخبر غير صحيح، ولعل لمشركي مكة دور في إيصال الأخبار غير الصحيحة إلى المهاجرين في محاولة لاستدراجهم، وهناك سبب آخر وهو زيادة عدد المسلمين ودخول عدد من أشراف مكة في الإسلام منهم حمزة رضي الله عنه عم رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه[5] وغيرهم من أشراف مكة، ولعل هذه الأخبار أوجدت لدى

---

(١) البخاري صحيحه، باب موت النجاشي ج٤/ ٢٤٦.

(٢) البخاري صحيحه، باب موت النجاشي، ج٤/ ٢٤٦؛ مسند الإمام أحمد، ج١/ ٢٠١.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣٤؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٤.

(٤) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٦.

(٥) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٣٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤٢.

المهاجرين قناعة بأن أهل مكة لن ينالوا من المسلمين، وأنهم قد عزّوا في مكة، وأن عدد المسلمين صار قوياً بما يمنع الأذى عنهم،[1] فقرروا العودة إلى مكة، في شعور منهم أن الأوضاع قد تحسنت، وحينما عادوا إلى مكة لم يدخلوها إلا مستخفين أو في جوار رجال من قريش وقد عاد بعضهم مرة أخرى إلى الحبشة.[2]

---

(١) انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٣٧٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٦٤؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج١/ ٢٠٥.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

لما اكتشف المسلمون إصرار قريش على معاندة الرسول ﷺ وأذى أصحابه وأنه لا صحة لما ظهر من أخبار إسلام قريش، برزت الحاجة إلى خروج عدد آخر من المسلمين الذين زاد عددهم في مكة، خصوصاً بعد سماعهم بأمن أصحابهم المهاجرين الأوائل، فخرج جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ في عدد من المسلمين حتى وصل عددهم إلى ثلاثة وثمانين رجلاً وإحدى عشرة امرأة،[1] وقيل أكثر من ذلك.

وقد وصل أولئك إلى الحبشة وأَمِنوا والتقوا بالنجاشي أكثر من مرة وظهر لهم صدقه وحماهم وآواهم، بل ذُكر أنه أسلم على يد جعفر بن أبي طالب وبايعه نيابة عن

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/٢٠٦.

النبي ﷺ،[1] ولم يَرُق الأمر لقريش وكانت تربطه ببعض زعمائهم بعض العلاقات، فأرادوا أن يلحقوا الأذى بالمهاجرين إلى الحبشة فأعدوا هدية خاصة للنجاشي، واختاروا وفداً منهم لهذه المهمة كان فيهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة،[2] وتروى أم سلمة وهي من المهاجرين مع زوجها أبي سلمة،[3] فتقول: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمِنَّا على ديننا وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه)،[4] (فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فيهم رجلين منهم جلدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأُدم (الجلود) فجمعوا له أُدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية وهي رشوة واضحة في محاولة لكسبهم للتأثير على قرار النجاشي ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعوا إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣٣.

(٣) من رواية بن إسحاق، المغازي، ص١٩٤.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣٤.

فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم إنه قد ضوى [لجأ] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكّلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلّماه فقالا له: أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء ابغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقال بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هاء الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما،

ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما جاؤا وقد دعا النجاشي أساقفته، فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء للجوار ويأكل القويّ منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قالت: فعدّد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا

علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك، قالت: فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، قالت: فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون. قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، قالت: فقال عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا: لا نفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه؟ قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاء به نبينا، كائناً في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت: فقال

جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ـ والشيُّوم: الآمنون ـ من سبَّكم غرم، ثم قال: من سبَّكم غرم، ثم قال: من سبَّكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم. قال ابن هشام: ويقال دبراً من ذهب، ويقال: فأنتم شيوم والدبر: (بلسان الحبشة): الجبل ـ ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحَين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار). [١]

إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه [٢]

في السنة السادسة من البعثة كانت أعداد المسلمين قد زادت في مكة وانتشرت، وكان الأذى مستمراً من كفار قريش لرسول

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨، والنص له؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٦٥ ـ ١٦٩؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٤.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٢؛ وراجع تفصيلاته تحت عنوان «إسلام حمزة»، ج١/ ٢٩١.

الله ﷺ ولأتباعه، وكان حمزة بن عبد المطلب لا يزال على دين قومه، إلا أنه لم يُعرف عنه أذى لرسول الله ﷺ، كما كان يفعل أبو لهب وامرأته، وكان فيه حمية للرسول ﷺ فهو عمه، إضافة إلى أنه أخوه من الرضاعة.[١] وقد مر أبو جهل برسول الله ﷺ وشتمه ونال منه وآذاه بما يكره فلم يرد عليه رسول الله ﷺ، وكانت جارية مولاة لعبد الله بن جدعان ترقب الموقف وتسمع ما يقول أبو جهل، وبعد أن انصرف أقبل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ من رحلة صيد معه سيفه وقوسه، وكان من أشجع قريش وأعز فتيانها، فلما مرّ بمولاة عبد الله بن جدعان قالت له: يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي أبن أخيك محمد من أبي الحكم بن هشام (أبا جهل)، وقصَّت عليه ما فعل بالنبي ﷺ[٢] فغضب غضباً شديداً، وانطلق يبحث عن أبي جهل فأقبل نحوه فضرب رأسه بالقوس فشجه ثم قال له: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فردّ على ذلك إن استطعت (يقصد الضربة) فقام رجال لينصروا أبا جهل فنهاهم، وقال: دعوا أبا عماره فو الله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً،[٣] (وكان أبو جهل يطمع في تراجع حمزة عن إسلامه) ورجع حمزة إلى بيته، وكان لا يزال متردداً

---

(١) ورد ذلك في حديث للبخاري، باب عمرة القضاء، ج٥/ ٨٥؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ١٠٨؛ وانظر: حجة الوداع من هذا الكتاب.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج٣/ ٩.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٢، تحت عنوان (إسلام حمزة).

في ما قال وفي الغد توجه إلى رسول الله ﷺ ليسمع منه فسمع من النبي ﷺ ما أنار قلبه، وثبته على الإيمان، ودعا له الرسول ﷺ فقال يا رسول الله أشهد أنك لصادق فأظهر دينك فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأنا على ديني الأول،[1] وكان إسلامه عزة للإسلام والمسلمين ونصراً ومنعة.[2]

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يُعد إسلام عمر بن الخطاب مرحلة مميزة في الدعوة المكية، وفي سيرة المصطفى ﷺ، ولذلك خصَّها أصحاب السير بعنوان مميز لما يرونه من أهمية الحدث.[3]

وقصة إسلامه فيها أكثر من رواية، والذي يظهر أن تلك الروايات غير متناقضة، بل ربما يكمل بعضها بعضاً، من ذلك وقوع الإسلام في قلبه قبل إسلامه بفترة، ذلك أن عمر يقول: (خرجت يوماً إلى البيت فدخلت في ستر الكعبة والنبي ﷺ قائم يصلي وقد استفتح سورة الحاقّة فجعل النبي ﷺ يقرأ وأنا استمع وأعجب من تأليفه فقلت في نفسي هذا والله شاعر كما قالت قريش فقرأ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤٦.

(٢) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص١٧٢؛ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١/ ٣٠٠؛ مهدي رزق، السيرة النبوية من المصادر الأصلية، ص٢١٢.

(٣) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٣٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤٢.

تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة]. فقلت في نفسي كاهن فقرأ ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة]،[١] ويظهر أن هذا الحدث قد أثر في قلب عمر وأقنعه بصدق رسول الله ﷺ.

وحدثت حادثة أخرى رواها ابن إسحاق عن أم عبد الله بنت أبي حثمة زوجة عامر بن ربيعة قالت: (والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شِرْكه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا قالت: فقال: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صَحِبكُم الله، ورأيت له رقَّةً لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ــ فيما أرى ـ خروجنا، قالت فجاء عامر لحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر سالفاً ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم، قال فلا يُسْلِمُ الذي رأيتِ حتى يُسلِمَ حمار الخطاب)،[٢] قالت: يائساً منه لِما كان يرى من غلظته وقسوته.

وقد أورد ابن إسحاق: أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقد أسلمت

---

(١) انظر: بعض الخبر عند ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٣٦.

(٢) ابن إسحاق، السير والمغازي، ص١٨١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤/ ٤٢٩.

وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحّام رجل من قومه، من بني عدي بن كعب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فَرَقاً من قومه، وكان خبَّاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطَّاب يُقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش وسفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرّتك نفسُك من نفسِك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيكَ تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال وأي أهل بيتي؟ قال: خُتنُك [صِهْرُك] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه وعليك بهما قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وخُتنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها، فلما سمعوا حِسّ عمر تغيَّب خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت

فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالا له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فأصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فأرعوى، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه فقالت له: يا أخي، إنك نَجِسٌ على شِرْكك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر، فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له يا عمر: والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب، فاللهَ اللهَ يا عمر فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه،

فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً سيفه فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال يا رسول الله ﷺ: هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فَأْذَنْ له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه [جَذَبَه] به جبذة شديدة، وقال: ((ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة))، فقال عمر: يا رسول الله جئت لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمَر قد أسلم). (١)

ومنذ إسلام عمر كان حريصاً على نصرة النبي ﷺ وإغاظة قريش. وقد كانت له شخصية قوية مميزة قوية فاعلة، فقد روى ابنه عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أنه (لما أسلم أبي عمر قال: أيُّ قريشٍ أنقلُ للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقِلُ كل ما رأيت حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤٤ ـ ٣٤٩؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٣٥.

قال: فو الله ما راجعه حتى قام يجرّ رداءه واتبعه عمر وتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا، قال: ويقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلح[1] (حتى تعب) فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا، قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حَبْرة وقميص موشّى، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟ قالوا صبا عمر، فقال: فَمَهْ، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عديّ بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا؟ خلّوا عن الرجل، قال: فو الله كأنما كانوا ثوباً كشط عنه، قال: قلت: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبتِ من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟ قال: ذاك أيْ بُنَيّ (العاص بن وائل السهمي).[2]

وقد ثبت في روايات عند البخاري أنه كان يؤذي خُتنه سعيد

---

(١) طلح: أعيا وتعب.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٤٩، ٤٣٩؛ وقد ورد في البخاري ما يؤيد أجزاء منها، وقد جرت أبحاث عديدة عن إسلام عمر بن الخطاب والروايات الواردة فيها.

ابن زيد وأخته فاطمة قبل إسلامه، فسعيد بن زيد يقول: «لقد رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم».[1]

وكان إسلام عمر عزة للمسلمين، يقول ابن مسعود: (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)،[2] ويقول أيضاً: (لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا نصلي).[3]

وقيل إن المشركين اجتمعوا على عمر عند داره يريدون قتله، فلم يبتعدوا عنه إلا بعد أن أجاره العاص بن وائل.[4]

ورغم شدة عمر رضي الله عنه وقوته إلا أن التهديد الجارف جعله يخشى القتل، ففي رواية عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه (العاص بن وائل السهمي) أبو عمرو بن العاص، وعليه حلة حَبْرة وقميص مكفوف بحرير وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية فقال له: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت قال: لا سبيل إليك، بعد أن قالها أمنت، فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي فقال: (أين تريدون فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ،

---

(١) من رواية البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب، ج٤/ ٢٤٣.
(٢) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ج١٤/ ١٨٦.
(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٣/ ٣٧٠.
(٤) انظر: صحيح البخاري، باب إسلام عمر، ج٤/ ٢٤٢.

قال: لا سبيل إليه فَكَرَّ الناس).[1]

حادثة انشقاق القمر[2]

من عناد قريش لرسول الله ﷺ فقد طلبوا منه آية حددوها له، حيث (سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حِرَاء بينهما).[3]

وقد وضع البخاري في كتاب المغازي في صحيحه (باب انشقاق القمر)، وأورد فيه أحاديث عدة عن انشقاق القمر، ومنها رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال (انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ بمنى فقال: اشهدوا وذهبت فرقة نحو الجبل)،[4] وقال بعض العلماء إنها إحدى الآيات على قرب الساعة،[5] وقد حدثت في زمن النبي ﷺ.

ويرى المفسرون أن ذلك الحدث هو الوارد في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ

(١) انظر: صحيح البخاري، باب إسلام عمر، ج٤/ ٢٤٢.
(٢) وضع البخاري في صحيحه، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، ج٤/ ١٨٦.
(٣) رواه البخاري، صحيحه، باب انشقاق القمر، ج٤/ ٢٤٣.
(٤) رواه البخاري، صحيحه، باب انشقاق القمر، ج٤/ ٢٤٣.
(٥) تفسير ابن كثير، ج٢/ ١٧٨٨.

ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر].

ومع وجود هذه الآية الواضحة فإن مشركي مكة استمروا على عنادهم.

وقد ذكر زغلول النجار أن علماء الفلك خصوصاً بعد اكتشاف القمر في رحلات فضائية أكدوا: (أن القمر كان قد انشق في يوم من الأيام ثم التحم، بدليل تمزقات طويلة جداً وغائرة، أي عميقة في جسم القمر تتراوح أعماقها بين مئات عدة من الأمتار إلى أكثر من الكيلومتر، ويتراوح عرضها بين نصف كيلومتر وخمسة كيلومترات، وتمتد لمئات من الكيلومترات في خطوط مستقيمة أو متعرجة).[1]

وهذه معجزة إلهية حسية خارقة للسنن والقوانين،[2] حدثت بأمر الله في عهد رسول الله ﷺ في هذه المرحلة المكية كغيرها من المعجزات.

---

(١) د. زغلول النجار، خواطر في معية خاتم الأنبياء محمد ﷺ، ص١٢٠، ط٣، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

(٢) المصدر السابق.

المقاطعة الظالمة(١)

كانت قريش تمارس أقسى أنواع العقوبة والإيذاء للرسول ﷺ ولمن يؤمن به أو يدافع عنه وعن أتباعه، وقد جربت كل أنواع الأذى، ومع ذلك كانت الدعوة تنتشر بين القرشيين، وانتقلت خارج مكة، بل تجاوزت إلى الحبشة، حيث ثبت إسلام النجاشي وبعض أتباعه وإيمانهم بالنبي ﷺ.(٢)

وقد عزمت قريش على قتل النبي ﷺ، فحرص عمه أبو طالب على الدفاع عنه، وشاركه في ذلك بنو هاشم وبنو المطلب.

وقد وضع البخاري باباً سماه (باب تقاسم المشركين على

---

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، وذكر حصار قريش رسول الله ﷺ في الشعب، ج١/ ٢٠٨؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٥، خبر الصحيفة.
(٢) انظر: الهجرة إلى الحبشة من هذا الكتاب.

النبي ﷺ)، وذكر فيه حديثاً واحداً يؤكد الحادثة ومكان وقوعها، حيث روى عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال حين أراد حُنيناً: ((منزلنا غداً إن شاء الله خَيْفَ بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر)).(١)

ويبدو أنه نتيجة للضغوط وللخوف على الرسول ﷺ فقد اضطر المدافعون عنه إلى التجمع في شِعْب بني هاشم.(٢) وفي هذه الأثناء اجتمع زعماء المشركين في مكة، وذلك في السنة العاشرة من البعثة،(٣) وائتمروا فيما بينهم على أن يكتبوا بينهم عقداً، يتعاهدون فيه على مقاطعة بني هاشم والمطلب ومن يقف معهم في الدفاع عن الرسول ﷺ، وكان فيه أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوا منهم شيئاً ولا يبتاعوا، ولا يقبلوا منهم صلحاً أبداً حتى يسلموا رسول الله ﷺ إليهم ليقتلوه، وقد كتبوا ذلك في صحيفة علقوها في جوف الكعبة، في محاولة منهم لإكسابها شرعية وإعطائها قوة تنفيذية بين قريش وأحلافها، وقد ذُكر أن ذلك في وقت خرج فيه المسلمون إلى الحبشة، وزادت أعدادهم بعد الصحيفة. وقد استمرت هذه المقاطعة

---

(١) البخاري، صحيحه، كتاب المغازي، باب تقاسم المشركين على النبي ﷺ، والخيف ما أنحط من على الجبل وأرتفع عن مسيل الماء، ج٤/ ٢٤٦.
وخيف بني كنانة؛ هو خيف منى وبه مسجد منى المشهور؛ (محمد شراب، المعالم الأثيرة في السنة والسيرة) ص١١٠.

(٢) السهيلي، الروض الأنف، ج٢/ ١٢٧.

(٣) انظر د. أكرم العُمري، السيرة النبوية، ص١٨٢.

ثلاث سنوات.[1] واشتد الجوع والأذى، وزادت الحاجة في المسلمين وذوي رحم الرسول ﷺ والمدافعين عنه.

وقد اضطر المحاصَرون المقاطَعون إلى أكل ورق الشجر والجلود من شدة الحاجة، وكان في بني المطلب وهاشم حمية دفعتهم للدخول مع الرسول والمؤمنين في هذا الحصار وهذه المقاطعة عدا أبا لهب،[2] الذي كان مع المشركين مشاركاً في أذى النبي ﷺ، بل وربما قتله لو استطاع، وكان الخوف على حياة الرسول ﷺ خلال الحصار قائماً، ولذلك حرص عمه أبو طالب على متابعة سلامته بنفسه، فكان إذا نام الرسول ﷺ يوقظه أحيانا ويطلب منه تغيير مكانه خشيةً، عليه من الغِيلة من قريش.[3]

وقد دعا رسول الله ﷺ على قريش، فحدثت فيهم مجاعة حتى اضطروا للميتة، وكانت قريش على قناعه أن ما أصابهم كان بدعاء الرسول ﷺ، فجاء أبو سفيان يناشد الرسول ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ ربه، فكشف الله عن قريش العذاب.[4]

وأثناء الحصار كان أفراد من قريش من ذوي رحم المحاصَرين تأخذهم الرحمة فيقومون بتهريب الطعام

---

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٩.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٥١.
(٣) انظر: عثمان الخميس، كنوز السيرة، ص٧٥.
(٤) انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١/ ١٨٣.

للمحاصَرين ليلاً بشكل سري. وكان من هؤلاء حكيم بن حزام ابن خويلد، حيث كانت أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) عمته، إضافة إلى آخرين كانوا يُحملون الإبل أحياناً بالطعام فيأتون بها ليلاً في فم الشِّعب فيخلعون الخُطام ويدفعون البعير محملاً بالطعام داخل الشِّعب، وقد كان هؤلاء الواصلون يدخلون في نزاع مع المُصرين على المقاطعة، ففي يوم من الأيام تنازع حكيم بن حزام مع أبي جهل بسبب إرسال حكيم شيئاً من القمح إلى عمته خديجة (رضي الله عنها).[1]

وبعد ثلاث سنوات من الحصار تلاوم بعض عقلاء قريش، واتفق مجموعة منهم على الجهر بإلغاء المقاطعة، ومطالبة قريش بتمزيق الصحيفة، والعودة عن مقاطعة بني هاشم وأتباع النبي ﷺ، وكان على رأس هؤلاء الرافضين للمقاطعة المطالبين بإلغائها هشام بن عمرو بن ربيعة، وكان من أشراف القوم، فمشى إلى رجال من قريش أنِسَ منهم المساندة وكره المقاطعة (فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة، والخروج من هذا التعاقد الظالم، ولما كانوا خمسة اجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة).[2] وقام زهير بن أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب في نادي قريش وقال: (يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٥٤؛ محمد أبو شهبه، السيرة النبوية، ج١/ ٣٦٠.

(٢) أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، ص١٣٩.

وبنو هاشم هلكى، لا يُباع ولا يُبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة).[1]

وحاول أبو جهل جاهداً منع نقض الصحيفة، لكن أصحاب الفكرة غلبوا في الحديث، فقال أبو جهل قولته المشهورة إنه لأمر قُضي بليل.[2] وقام المطعم بن عدى بإخراج الصحيفة من الكعبة ليشقها، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها إلا (باسمك اللهم).[3] وكان النبي ﷺ أخبر أبا طالب بذلك وبطلت الصحيفة وما فيها من ظلم، وعاد الرسول ﷺ ومن معه إلى حياتهم العادية وسط المجتمع المكي، ونشطوا في التجارة بيعاً وشراءً، واستغنوا بذلك بعد أن كانوا مُنعوا منه، وموررست عليهم إجراءات صارمة لعزلهم اقتصادياً واجتماعياً ومعنوياً من أهل مكة.[4]

---

(١) انظر: عنوان السهيلي في الروض الأنف، ج٢/ ١٢٧، وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٧٤؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٤٥.
(٣) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٩.
(٤) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٠٩.

وفاة خديجة[1]

كانت أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) نعم الزوجة والصاحبة والمواسية والمعينة للنبي ﷺ، وآسته بمالها، وأعانته بنفسها، أول من آمن به وصدقه، نعم الزوجة لخير الخلق ﷺ. وقد ضرب الله مثلاً في القرآن الكريم لبعض زوجات الأنبياء خُنّ أزواجهن بمساعدة أعدائهم والوقوف مع المشركين، وليس بخيانة زوجية، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم]. أما خديجة (رضي الله عنها) فهي نعم الزوجة، أثنى عليها رسول الله ﷺ فقال في الحديث الذي رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ((خير نسائها مريم بنت عمران وخير

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٤١٥، (وفاة أبي طالب وخديجة).

نسائها خديجة بنت خويلد)).[1] وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: (ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة، هلكت قبل أن يتزوجني، لما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاه فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن).[2] كما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: (أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب).[3]

كانت زوجته الوحيدة حتى ماتت، وأم أولاده وبناته، أحسن النساء خُلقاً وأحبهن لرسول الله ﷺ، دفعت عنه الأذى الكثير بنفسها، وبتوجيهها لبناتها (رضي الله عنها)، كما شارك أقاربها في الدفاع عن النبي ﷺ، إرضاءً لها، ولما يعرفونه منها عن صدق النبي وحسن عشرته.[4]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها)، ج٤/ ٢٣٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها)، ج٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب (باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها)، ج٤/ ٢٣١.

(٤) انظر: زواج الرسول ﷺ من خديجة رضي الله عنه من هذا الكتاب.

وفي العام العاشر من البعثة النبوية،[1] توفيت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، وكان ﷺ راضياً عنها محباً لها، مُبشرها بالجنة في أكثر من موضع، وقد كانت وفاتها في العام الذي توفي فيه عمه أبو طالب، وكان خير مدافع عن رسول الله ﷺ، ولذلك سمي هذا العام عام الحزن.[2]

وقد أجمعت الأمة على أن خديجة (رضي الله عنها) خير نساء النبي ﷺ وفي كُلِّ خير.[3] وقد كان الرسول ﷺ وفياً لها بعد وفاتها، فقد كان يدعو لها ويذكُرها بخير ويصل ذوي قرابتها وصويحباتها، وحينما أُسر أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبي في غزوة بدر أرسلت زينب قلادة أهدتها لها أمها خديجة فداءً لزوجها، فلما رأى النبي ﷺ القلادة تذكرها ورقّ لها رقة شديدة، وقال لأصحابه: (إن رأيتم إن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فأفعلوا)،[4] واستجاب الصحابة (رضوان الله عليهم). وكان ﷺ غاية في الأدب ولم يوجه أمراً، إلى أصحابه الذين فعلوا ما يُحب وإن لم يكن طلب ذلك.

وقد ورد أن امرأة من صويحباتها جاءت إلى النبي ﷺ في المدينة، فأقبل عليها وأحسن لقاءها وسأل عن أحوالها، فلما

---

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١١.

(٢) الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٣٦٧.

(٣) محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١/ ٣٩٧.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٥٣.

خرجت قالت عائشة (رضي الله عنها)، وقد عرفت السبب وأحست بشيء من الغيرة: تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال فقال ﷺ: ((إنها كانت تأتينا زمان خديجة وإن حُسن العهد من الإيمان)).[1]

(١) رواه الحاكم والبيهقي، محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١/ ٤٠٠؛ وانظر: ترجمة خديجة من الكتاب.

وفاة أبي طالب

انتهت المقاطعة وألغتها قريش بفعل ذوي الضمائر منهم، وعاد الرسول ﷺ ومن معه من قومه إلى الحياة الطبيعية في مجتمع مكة، واطمأن أبو طالب وهو المدافع الرئيس عن النبي ﷺ كثيراً بعد إلغاء المقاطعة، ولكن التهديد لحياة الرسول ﷺ لم يتوقف.

قبيل وفاة أبي طالب مرض واشتكى في السنة العاشرة للبعثة،[١] وكان الرسول ﷺ مشفقاً عليه داعياً إياه للإسلام والخير، منذ مبعثه، ولكنه لم يؤمن ويعلن إسلامه. وفي الوقت نفسه لم يتوقف عن مساندة الرسول ﷺ ودعمه والوقوف معه وحمايته. روى البخاري (أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: أيْ عَمِّ قل: لا إله إلا الله كلمة أُحاجُّ لك بها عند الله)، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١١.

أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فقال النبي ﷺ: ((لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنه))،[1] فنزل قوله تـعـالـى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾[التوبة]، ونزلت:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص].[2]

وذُكر أن أبا طالب دعا النبي ﷺ لاجتماع مع مشركي مكة، فقال: يا ابن أخي إن هؤلاء أشراف قومك اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول ﷺ: ((نعم كلمة تعطونيها تملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم))، فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات قال ﷺ: ((تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه))، فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عُجاب، ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ: والله يا ابن أخي ما

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، ج٤/ ٢٤٦.
(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ١٤٢١.

رأيتك سألتهم شططاً،[1] ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص].[2]

وقد كان النبي ﷺ محباً لعمه مشفقاً عليه، يرى معروفه ويشكر له وقوفه إلى جانبه، ويدرك أن لا منقذ من النار لأي كان إلا شهادة أن لا إله إلا الله، وكان ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يقولها أبو طالب، ولكن حضور أبي جهل وأمثالهم من شياطين الجن وتأكيدهم على ملة عبد المطلب، حيث لم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبد المطلب.[3]

ومات على ذلك فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً، وقال ((لاستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك)) فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤١٧؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١١١.

(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج٢/ ١٦٠٠.

(٣) من حديث البخاري، باب قصة أبي طالب، ج٤/ ٢٤٧.

[القصص]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة]، وقد رأى بعض العلماء أن الآية لم تكن في أبي طالب، وإن صح ذلك فهو نهي عام عن الاستغفار لمن مات على غير الإسلام، ولو كانوا أولي قرابة الرسول ﷺ، وهذا واضح من الآية.

ويحاول البعض إثبات إسلام أبي طالب محبة في علي رضي الله عنه كما يرون. ومحبة علي واجبة على الأمة جميعاً ومحبة الرسول ﷺ مقدمة على ذلك، ولا تضاد بينهما، ومع ذلك فإننا نعلم بلا شك أن أبا لهب عدو لله ولرسوله، ولم يضر الرسول ﷺ ذلك، ولم يضر علي بن أبي طالب، فهو عمه، كما أن أبا طالب عم الرسول ﷺ، ووجود أحاديث صحيحة لدى البخاري وغيره تؤيد عدم إسلام أبي طالب لا يضير أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وما له من مكانة عند الله وعند المسلمين إلى يوم القيامة.

فالشرك حد فاصل في القرابة، ولم نجد علياً رضي الله عنه يقول غير ذلك أو يذكر إسلام أبيه. ودفاع أبي طالب عن النبي ﷺ غير مجحود ولا منكر، لكن أجر الآخرة مقرون بالإيمان بها والإيمان بالله ورسوله، وإن كان هناك ما يدل على تصديق أبي طالب بالنبي ﷺ، إلا أن عدم نطقه بالشهادة وإصراره على ملة عبد المطلب وهي الشرك حتى آخر لحظة في حياته بمتابعة من

الأشرار، وشياطين الأنس وعلى رأسهم ـ أبو جهل ـ تجعل أبا طالب في صف عبد المطلب كما قال، ولعل العباس بن عبد المطلب، وهو عم رسول الله ﷺ وأخو أبي طالب أدرك هذا الأمر ووجه سؤالاً لرسول الله ﷺ، فقد روى البخاري عن العباس رضي الله عنه (قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: ((هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار)). [(١)]

وقد ناقش ابن حجر الموضوع في الفتح وفي الإصابة، واستفاض في ذلك.

وهنا لابد من التأكيد مرة أخرى أن منزلة علي رضي الله عنه في قلوب المؤمنين عظيمة وعند الله له من المكانة ما لن يزيده أو ينقصه عدم إيمان أبيه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر]. ومن المعروف أن القرآن الكريم تحدث عن والد إبراهيم عليه السلام أنه كان من عتاة الكفر في زمانه ولم يضره شيئاً، فعلي رضي الله عنه مثله مثل إبراهيم عليه السلام في هذا الموقف الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة]، والحديث العلمي عن موقف أبي طالب ووفاته لا يناقض محبتنا لآل البيت والنبي ﷺ وعلي رضي الله عنه، وهي جزء من ديننا وحبنا لهم.

---

(١) البخاري، صحيحه، باب قصة أبي طالب، ج٤/ ٢٤٧.

لقد كان أبو طالب مسانداً للرسول ﷺ، وبموته خفّ دعم النبي ﷺ وضعف مناصروه وتزامن ذلك مع وفاة خديجة فسمي عام الحزن.[1]

رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف

الطائف ثاني مدينة حجازية، وإحدى القريتين اللتين أشار إليهما القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]، أقرب المدن إلى مكة وأكثرها اتصالاً بها.

كان أهل مكة منذ العصر الجاهلي يتملكون بها المزارع والبساتين ويتوجهون إليها في الصيف، يرتبط أهلها بأهل مكة بروابط النسب والمصاهرة وعلاقات القربى إضافة إلى التبادل التجاري طوال السنة،[2] ويقع بقربها سوق عكاظ، حيث كان الرسول ﷺ يتردد عليه قبل البعثة وبعدها، وكان يعرض فيها دعوته ونفسه على القبائل منذ الجهر بالدعوة.[3] وبعد وفاة خديجة (رضي الله عنها) وعمه أبي طالب، اشتد الأذى على رسول الله ﷺ حتى ضاقت عليه مكة. وقد فقد السند والزوجة، كما كان كثير من الصحابة قد هاجروا إلى الحبشة، فيمم

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤١٦؛ عثمان الخميس، كنوز السيرة، ص٨٠، ٨٢.

(٢) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/٩.

(٣) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٢٤.

الرسول ﷺ وجهه نحو الطائف،[1] حيث قبيلة ثقيف، تحيط بها هوازن. وقد صاحبه في هذه الرحلة زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وصاحبه وألصق الناس به ﷺ.[2]

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى الطائف كان هدفه الدعوة، فقابل ثلاثة رجال من أشراف ثقيف دعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وأن يناصروه ﷺ، أما الأول فهو عبد ياليل بن عمرو بن عمير فردَّ عليه رداً قبيحاً، وكان مما قال له: هو يمرط (يمزق) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. والثاني أخوه مسعود قال: ما وجد الله أحداً غيرك يرسله؟! وأما الثالث فهو أخوهم حبيب فقال: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله ﷺ لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك، فيئس رسول الله ﷺ منهم ومن مناصرتهم، وكره أن يبلغ الناس ردهم فيقلدوهم في أذى النبي ﷺ، وقال لهم: ((إذا فعلتم ذلك فاكتموا عنى))، خشية من أذى الآخرين، لكنهم لم يصبروا ولم يكتموا ولم يكتفوا بالرد السيئ فأغروا بالرسول ﷺ السفهاء والصبيان والعبيد الذين أخذوا يتبعون رسول الله ﷺ يسبونه، ويرمون قدميه الشريفتين بالحجارة، حتى دميت قدما رسول الله ﷺ، وسال الدم على نعليه، ومعه زيد بن

---

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١١.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٣٢.

حارثة يدفع عنه ويستقبل الحجارة بنفسه، حتى شُجَّ وجهه ﵁، واضطر الرسول ﷺ وصاحبه أن يلجأا إلى حائط ـ مزرعة ـ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما من مشركي مكة المؤذين لرسول الله ﷺ، ولعله سَرَّهُما ما رأيا من إصابة الرسول ﷺ، وما وقع من أذى أهل الطائف.

وجلس رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة تحت ظل شجرة يستريحان من عناء ما حدث لهما، وتوجه الرسول ﷺ بدعائه المشهور ((اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملَّكته أمري؟! إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله)). [(١)]

وقد جاء غلام نصراني يعمل لابنَيْ شيبة في المزرعة ـ ويسمى (عداس) ـ جاء بقطيف من عنب إلى الرسول ﷺ فوضعه بين يدي رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ: ((بسم الله الرحمن

---

(١) انظر: تخريج الدعاء والحكم عليه عند الصلابي، في السيرة النبوية، ج١/ ٤٠٧.

الرحيم)) ثم أكل، فإندهش عداس ونظر إلى النبي ﷺ وقال والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومن أي البلاد أنت؟ وما دينك؟ قال عدّاس: نصراني من أهل نينوى، فقال ﷺ ((من قرية الرجل الصالح يونس بن متى))؟ فقال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال ﷺ: ((ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي))، فأكبّ عداس يقبل رأس رسول الله ﷺ.

كان ابنا ربيعة يراقبان الموقف فقال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاءهما عداس قالا له: يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال عداس: يا سيدي ما في الأرض خير من هذا، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، فقالا له: ويحك يا عداس! لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.[1]

وقد أخذ ﷺ الطريق عائداً إلى مكة، وفي قرن الثعالب رفع ﷺ رأسه فرأى سحابة أظلته فإذا جبريل يناديه (إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال وسلم عليَّ ثم قال: يا محمد إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك مما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشَبيْن)، فقال ﷺ: ((أرجو أن يخرُج من أصلابهم من يعبد

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٠؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١٢.

الله وحده ولا يشرك به شيئاً))،[1] لقد كان ﷺ رحيماً بأمته ينتظر توبتهم أو أجيالاً أخرى مصدقة من أصلابهم.

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى مكة حاول المشركون منعه من دخولها، وتوجس ﷺ منهم شراً، فبعث إلى المطعم بن عدي أن يجيره، فقال: نعم. فذهب الرسول ﷺ إلى بيته ونام عنده وخرج معه في الصباح، ومعه بنوه، متقلدو السيوف، وقال المطعم للقوم: أنا مجير محمداً فطاف الرسول ﷺ وهو في جوار المطعم والقوم لا يستطيعون أن يخفروا ذمته، ولذلك أثنى الرسول ﷺ عليه خيراً، لما جاء إبنه جبير في فداء أسرى بدر وقال: ((لو كان المطعم حياً ثم كلمني في هؤلاء لتركتهم له)).[2]

وفي عودة الرسول ﷺ من الطائف مرّ بنخلة، وهي وادٍ بين مكة والطائف على مسيرة يوم من مكة في ذلك الزمان أما اليوم فهي أقل بكثير ولا تكاد تزيد عن عشرين دقيقة بالسيارة والله أعلم، فقام ﷺ من الليل يتهجد كعادته، فمر به نفر من الجن فسمعوا منه القرآن فلما انصرفوا ولّوا إلى قومهم منذرين وقد آمنوا وأجابوا.[3] وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا

---

(١) انظر: صحيح البخاري، (٣٢٣١)؛ ومسلم (١٧٩٥).

(٢) انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج١/١٥٣؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص٢١٦.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/٢١٢.

مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف]. (١)

وهذا لا ينفي استماع الجن للرسول ﷺ قبل هذه الحادثة أو بعدها. ومن الراجح أن الرسول ﷺ لم يتحدث عنهم، ولا عن سماعهم للقرآن إلا بعد أن نزلت عليه هذه الآيات. (٢)

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢/١٧٠٨؛ تفسير الطبري، ج١١/٢٩٧.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ج٢/١٧٠٨.

الإسراء والمعراج (٩ هـ)

الإسراء والمعراج[١] من الأحداث المهمَّة والكرامات الخاصة بنبينا محمدﷺ. ولعل تسمية سورة من سور القرآن الكريم (بالإسراء)، وورود كمٍّ هائل من الأحاديث حول الحادثة دليل على أهمية الحدث ومكانته في حياة الرسول ﷺ، وفي النبوة والرسالة.

فالإسراء هو ذهاب الرسول ﷺ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في جزء من ليلة، ورجوعه، في الليلة نفسها بطريقة معجزة ومحددة.[٢]

---

(١) أُلفِّت العديد من الكتب والرسائل حول الحدث قديماً وحديثاً، ولا زال الكثير منها مخطوطاً.
انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي، المخطوط السيرة والمدائح النبوية، مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٩٥؛ ابن حجر، فتح الباري، ج١٥/ ٤٩؛ ومهدي رزق الله، ص٢٣٣؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١٣.

والمعراج هو الصعود به ﷺ من بيت المقدس، والعروج به إلى السموات السبع، ورؤيته من آيات الله الكبرى ورجوعه إلى بيت المقدس في الليلة نفسها.[1]

والإسراء فيه ربط بين بيت الله الحرام في مكة والمسجد الأقصى في بيت المقدس وارتباط للنبي ﷺ بمن سبقه من الأنبياء، وارتباط دعوة التوحيد التي جاء بها بدعوات من سبقه ﷺ، فالرب واحد والدين واحد وأصل البشر واحد ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء] والهدف واحد: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف].

وقد نصت الآيات على الإسراء في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء].

ومن الواضح أن الإسراء بجسده وروحه ﷺ، ولو كان بالروح فقط لما احتاج الأمر إلى جدال مع المشركين والمنكرين، بل هو بالجسد والروح لنبيه المصطفى ﷺ، ومن رحمة الله تعالى أن الآيات بدأت بالحديث عن تسبيح الله وعبودية الرسول ﷺ لله حتى لا يأتي متقّول ليصرف الأمر عن موضعه،[2] أو يخرج

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٢٠؛ ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١٣.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٠٤.

النبيﷺ عن بشريته وعبوديته لله التي هي تكريم يعتز به صلوات ربي وسلامه عليه فهو ما جاء إلا ليقود الناس إلى عبودية الواحد الأحد، ويثبت نفسه والناس على ذلك ﷺ.

بداية الإسراء حينما كان رسول الله ﷺ نائماً في بيته بمكة، فأتاه جبريل عليه السلام فأخذه إلى بئر زمزم فشق صدره وطهر قلبه وحشي إيماناً وحكمة.(١) وهذا الشق لا ينافي شقه في مرات غيرها،(٢) وأحضر له البراق، دابة لها سرعة وحركة مخصوصة لا يعلمها إلا الله تعالى.

وركبه الرسول ﷺ، وما أن ركب رسول الله ﷺ حتى وصل سريعاً إلى بيت المقدس.(٣)

وحين وصل الرسول ﷺ إلى المسجد الأقصى ربط البراق في الحلقة التي كانت تربط به الأنبياء.(٤) وهذا جزء من عمل الأسباب مع التوكل على الله وإلا فالبراق تحت أمر رسول الله ﷺ.

وصلى رسول الله ﷺ ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناءين في

---

(١) انظر: صحيح البخاري، باب المعراج، ج٤/٢٤٨؛ صحيح مسلم، ج١/١٤٨؛ وابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/٩٨.

(٢) انظر: حادثة شق الصدر في بني سعد أثناء حضانته فيهم وتخريج رواية أنس ابن مالك، في رضاعة النبي ﷺ من هذا الكتاب.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٩٧.

(٤) من حديث مسلم، ومن رواية ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٢٠.

أحدهما لبن وفي الآخر خمر، فاختار ﷺ اللبن، فقال جبريل: (هُديت الفطرة،[1] أما إنك لو أخذت الخمر غويت وغوِيَتْ أمتك).

وقد أورد ابن إسحاق أنه ﷺ وجد نفراً من الأنبياء فيهم إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم ﷺ.[2]

إنها الصلاة في حياة النبي ﷺ، وأهميتها لديه، وفي حياة أمته، حيث أمَّ الأنبياء بها، كما أن فرضها وتشريعها خمس مرات في اليوم والليلة كان في معراجه ﷺ،[3] ولم يتغير من وضعها شيء في الشريعة،[4] فاستمرت على ذلك ولم يحصل لأي ركن من أركان الإسلام أو فرائضه مثلما حصل للصلاة من هذا التشريع.

ثم عُرج برسول الله ﷺ إلى السماء. وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب المعراج[5] أورد فيه حديثاً مطولاً عن

---

(١) من رواية مسلم في صحيحه، وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٨٧.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٩٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٩٩.
(٣) انظر: رواية البخاري في صحيحه، باب المعراج، ج٤/ ٢٤٨؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص ١١٨.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٠٨؛ ابن أبي شيبة، المغازي، ص١١٧؛ وانظر: رواية البخاري في صحيحه، باب المعراج، ج٤/ ٢٤٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٠١.
(٥) صحيح البخاري، ج٤/ ٢٤٨.

أنس بن مالك، ذكر فيه معلومات مختصرة عن رحلة الإسراء والمعراج، مع أن تفصيلاتها في روايات أخرى كثيرة.

(فقد روى البخاري عن أنس بن مالك ﵁: أن النبي ﷺ حدثهم عن ليلة أُسريَ به، قال: ((بينما أنا في الحَطِيم، وربما قال: في الحِجْر، مُضْطَجعاً إذ أتاني آتٍ فقَدَّ، قال: وسمعته يقول: فشقَّ، ما بين هذه إلى هذه، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول من قصه إلى شعرته، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي، ثم حُشى، ثم أعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال له الجارود: وهو البراق، فقال: يا أبا حمزة فقال أنس: نعم يضع خَطْوه عند أقصى طرفه، فَحُملت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك، قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم﵇ فقال: هذا أبوك آدم﵇ فسلِّم عليه فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال محمدﷺ، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى﵉ وهما أبنا الخالة، قال: هذا يحيى

وعيسى عليهما السلام فسلِّم عليهما فسلَّمت فردَّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ثم صعد بي إلى السماء الثالثة فاستفتح قيل من هذا قال: جبريل قيل ومن معك؟ قال: محمدﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا يوسف عليه السلام، قال: هذا يوسف عليه السلام فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي، ثم صعد بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمدﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء، ففتح فلما خلصت إلى إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس عليه السلام فسلِّم عليه فسلَّمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي، حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل ومن معك؟، قال: محمد ﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون عليه السلام، قال: هذا هارون عليه السلام فسلِّم عليه فسلَّمت عليه فرد، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم صعد بي حتى آتى السماء السادسة، فاستفتح، قيل: ومن هذا؟ قال: جبريل، قيل من معك؟ قال: محمدﷺ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا موسى عليه السلام، قال: هذا موسى عليه السلام فسلِّم عليه، فسلَّمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً

بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما تجاوزت بكى قيل له: ما يبكيك قال أبكي لأن غلاماً بعث يدخل من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي، ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمدﷺ، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً به فنعم المجيء جاء فلما خلصت فإذا إبراهيمعَلَيْهِ السَّلَامُ قال: هذا أبوك فسلِّم عليه، قال: فسلَّمت عليه فرد السلام، قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، ثم رُفعت لي سِدْرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قال: هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور، ثم أُتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل فأَخذت اللَّبن، فقال: هي الفِطْرة أنت عليها وأمتك، ثم فرضت عليِّ الصلوات خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: بما أُمرت؟ فقلت: بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، كل يوم وإني والله قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ ، فقال: مثله، فرجعت، فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: مثله، فرجعت فوضع

عني عشراً، فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال مثله، فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى عليه السلام فقال بما أُمرت، قلت أُمرت بخمس صلوات كل يوم، قال: أن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، واني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسلم، قال، فلما جاوزت، ناداني منادٍ أمضيتُ فريضتي وخففتُ عن عبادي)).[1]

وهذا الحديث عن المعراج فيه شيء من الاختصار، إذ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحدث عمَّا رأى أثناء المعراج في أحاديث كثيرة نقلت عنه، سواء منها وصف الجنة أم وصف النار، وقد أعطى عليه السلام كنوزاً عظيمة من العلم والآيات شاهدها أثناء المعراج، فكان يحدث عنها الأمة بقية حياته في أوقات متفاوتة، مما يصعب معه الحديث عمَّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في معراجه في حديث واحد.[2]

وقد استشهد كثير من العلماء بما ورد في سورة النجم من آيات وربط بينها وبين المعراج برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب المعراج، ج٤/٢٤٨ ـ ٢٥٠، وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١١٥.

(٢) انظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٢٧٢، ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٢٠.

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم].

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس)، أورد فيه حديثاً عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا ۝٦٠﴾ [الإسراء].

قال هي رؤيا عين أريها الرسول ﷺ ليلة أسري به والشجرة الملعونة شجرة الزقوم.(١)

ثم أعيد رسول الله ﷺ من معراجه إلى بيت المقدس ومنها رجع إلى مكة في ليلته.

وحدث ﷺ أهل مكة عن الحدث في صباح اليوم التالي، وأثار استغرابهم واستنكارهم. روى ابن عباس (قال رسول الله ﷺ: لما كان ليلة أسري بي أصبحت بمكة، قال: قطعت

---

(١) البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الإسراء، ج٥/ ٢٢٧.

بأمري وعرفت أن الناس مُكَذِّبِيَّ، فقعد رسول الله ﷺ معتزلاً حزيناً، فمر به أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال نعم، قال: وما هو؟ قال أُسري بي الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين أظهرنا؟ قال: نعم، فلم يُره أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أتحدث قومك ما حدثتني إن دعوتهم إليك؟ قال: نعم. قال: هيا معشر بني كعب بن لؤي هَلُمّ، قال: فتنفضت المجالس، فجاؤا حتى جلسوا إليهما، فقال: حدث قومك ما حدثتني، قال رسول الله: إني أُسري بي الليلة، قالوا: إلى أين ؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: نعم قال: فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للذي زعم، وقالوا: أتستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ قال: وفي القوم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد، قال رسول الله ﷺ فذهبت أنعت لهم، فما زلت أنعت حتى التبس عليّ بعض النعت، فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو دار عقال، فنعتُّه وأنا أنظر إليه، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب). [1]

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١١٨؛ ورواه مسلم في صحيحه عن ابن أبي شيبة؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٠٢؛ وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٩٧.

لقد كشف الله لرسوله في الحال ومباشرة عن المسجد الأقصى، فكان يصف لهم كلما سألوا عنه، وهذه معجزة للرسول ﷺ، حيث هيأ له ما يصدق قوله عن الإسراء.

كما أن هناك شاهداً آخر مما يمكن أن يكون شاهداً للعقلاء، حيث قال لهم ((وآية ذلك أني مررتُ بعير بني فلان بوادي كذا وكذا فأنْفَرَهم حسُّ الدابة فندَّ لهم بعير فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت حتى إذا كنت بضَجَنان[1] مررت بعير بني فلان فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم تُصوِّب الآن من ثَنِيَّة التَّنْعيم البيضاء يقْدُمها جمل أوْرَقٌ عليه غِرارتان إحداهما سوداء والأخرى بَرْقاء)).[2]

فابتدر القوم الثنية التي ذكر، وسألوهم عن الإناء فأخبروهم بما أخبرهم به ﷺ.

وسألوا بعد ذلك أصحاب البعير الذي وصف لهم فقالوا: نعم قد سمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه.[3]

---

(١) ضجنان، جبل ناحية تهامة؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٩٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/ ١٣٠؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٠٣.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٠٣؛ وابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١٥.

وقد تميز أبو بكر الصديق رضي الله عنه في صبيحة الإسراء بموقفه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد فرح المشركون بالخبر وهم يعرفون عقل أبي بكر الصديق وتمحيصه للأخبار، لكنهم لا يقيسون بنفس مقاسه وبعد نظره ونظرته للرسول صلى الله عليه وسلم.

فسارع أناس من مشركي مكة إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأخبروه بما قال الرسول صلى الله عليه وسلم من المعراج فقال رضي الله عنه: ((والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك؟! فوالله إنه ليخبرني بالخبر يأتيه من المساء في ساعة ليل أو نهار فهذا أبعد مما تعجبون منه). [(١)] ثم إن الصديق رضي الله عنه أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم يسأله أمام القوم ليصدقه، فكلما تحدث النبي صلى الله عليه وسلم وذكر شيئاً قال له: صدقت، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: ((وأنت يا أبا بكر الصديق)). [(٢)]

إنه موقف العقل والإيمان وبعد النظر. لقد ذكر الصديق رضي الله عنه أن أمر النبوة والصلة بالسماء والأرض ونزول الوحي أعظم من أن يخبرهم برحلة ليلية قطع المسافة فيها من مكة إلى بيت المقدس وعاد في ليلة واحدة.

أثبت الصديق من هذا الحادث تميز مقاييسه، وأن إيمانه بالوحي أعظم من هذا الحادث وأثبت، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٩٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٩٧.

(٢) الحاكم، المستدرك، ج٣/ ٦٣؛ وصححه الذهبي؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٩٩.

يكذب، وأن كل ما يقوله صدق إذا ثبت عنه، ومن هنا استحق اللقب الذي أطلقه عليه رسول الله ﷺ (الصديق).

وزمن الإسراء بدقة مختلَف فيه، فمنهم من يراه في شهر ربيع الأول، ومنهم من يراه في رجب وغير ذلك.[1]

والعبرة ليست بالزمن ذاته، ولكنها في الحدث وتشريف الرسول بذلك، والدروس المستفادة منه ومعرفة ظروفه ونتائجه.

العرض على القبائل[2]

لقد كان من رحمة الله لنبيه ﷺ وما صنعه له وتربيته وتعليمه أن هيأ له ما جعله يتعرف على القبائل ومواطنها، فقد عمل الرسول ﷺ في تجارة خديجة، وكانت له مكانة عند أهل مكة، فكان يخالط القادمين إليها من مختلف القبائل، كما كان ﷺ من المترددين على أسواق العرب التي كثير منها ما يكون موسمياً، ومنها ما هو مجاور لمكة مرتبط بموسم الحج، حيث تعتبر مكة من أكثر بلاد العرب تجارة وثراء فكانت أسواقها قائمة طوال العام، حيث يقدم العرب إلى سوق عكاظ قرب الطائف،[3] ثم

(١) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢١٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٠٧؛ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١/ ٤١٨.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، في النبي ﷺ حين عرض نفسه على العرب، ص١٢٤.

(٣) انظر: ناصر الرشيد، سوق عكاظ في الجاهلية والإسلام.. تاريخه ونشأته وموقعه، ط١، دار الأنصار، القاهرة، ١٣٩٧هـ.

ينصرفون منه للحج لقرب زمنه ثم تتصل الأسواق إلى مجنة وذي المجاز.[1]

وكان الرسول ﷺ متردداً على تلك الأسواق قبل البعثة وبعدها، وقد حاول كفار قريش التنقص من الرسول ﷺ: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان].

فرد عليهم القرآن الكريم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ [الفرقان].

ومن هذه الآيات يتبين لنا أن مشي الرسول ﷺ في الأسواق ليس عيباً، بل من الأمور التي دافع عنها القرآن الكريم،[2] وكان فيها يتعرف ويطالع ويميز القبائل والرجال وأشرافهم ويسمع ويُسمع قبل البعثة وبعدها.

وحينما بعث الرسول ﷺ وظهرت دعوته حاربه قومه منذ البداية، وكانت دعوته عالمية ليست محصورة بمكة وأهلها، بل هي للخلق من أنفسهم وفيهم.

وتنزل عليه من الآيات من أول البعثة ما يؤكد عالمية رسالته

---

(١) راجع: سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط٣، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٤هـ.

(٢) انظر: الطبري، تفسيره، ج٩/٣٧٨؛ ابن كثير، تفسيره، ج٢/١٣٥٣.

وإنها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. وأن الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة].

ولذلك كانت وجهته ﷺ العالم كله، وما كان ليحصر نفسه في مكة، ومنذ البداية كان يدعو في الأسواق، وبين القادمين لمكة من خارجها، وما قصص إسلام الكثيرين من خارج مكة إلا نتيجة لهذا العرض.

كما كان ﷺ يغشى تجمعات القبائل في موسم الحج، فيعرض دعوة الإسلام عليهم وكان يتبعه أبو لهب، محاولاً إبعاد الناس عن السماع له ﷺ. وكان النبي ﷺ يقول: ((يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون، دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثي به))، فكان أبو لهب يصد الناس عنه ويحصبه ويقول لهم إنه مجنون، فكان بعضهم يرد عليه رداً قبيحاً، ويقول للرسول ﷺ قومك أعلم بك ويردون عليه رداً قبيحاً.[1]

وقد ورد عن شاهد عيان قال: رأيت رسول الله ﷺ بذي المجاز يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل، وكان وراءه رجل يحصبه، وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا عن

---

(١) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٨٥، ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٤.

دينكم ودين آبائكم. [١] كان هذا الرجل عمَّه أبا لهب وفَرْقٌ بين من يحصِب ومن يصحَب.

وكان أبو بكر الصديق ﵁ يصحب النبي ﷺ حينما كان يطوف على القبائل وخصوصاً في موسم الحج، فيضيف خبرة أخرى لمعرفته بالقبائل ومواطنها وعددها وقوتها، وكان أبو بكر يسأل أحياناً (كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة؟). [٢]

وقد ثبت أن الرسول ﷺ في السنة العاشرة للبعثة والسنة التي تلتها، أكثر من عرض نفسه على القبائل وخصوصاً بعد عودته من رحلة الطائف، وممن عرض نفسه عليهم (غسان، وفزارة، ومرة، وبنو حنيفة، وبنو سُليم، وعبس، وثعلبة، وكنده، وكلب، وبنو الحارث بن كلب وبنو عُذرة، وقيس)، [٣] وقد نقلت المصادر بعض التفصيلات عن تلك اللقاءات.

وممن عرض الرسول ﷺ نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة، فقال أحد أشرافهم وهو بحيرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم سأل النبيﷺ أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٣.

(٢) مسند الإمام أحمد، ج٣/ ٤٩٢.؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٦٦؛ انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤١.

(٣) انظر إلى أسماء هذه القبائل وقصة عرض الرسول ﷺ نفسه عليها عند ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٤؛ وراجع السمعاني في كتابه الأنساب.

أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: ((الأمر لله يضعه حيث يشاء))، فقال: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك.[1]

ومما خاطب به رسول الله ﷺ الناس في المواقف: «هل من رجل يحملني إلى قومه فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي عز وجل، فأتاه رجل من همدان فقال ﷺ للرجل: من أنت؟ قال: من همدان قال ﷺ: فهل عند قومك من منعة؟ قال: نعم، ثم إن الرجل خشي أن يخفره قومه، فأتى إلى النبي ﷺ فقال له: آتيهم (يعني قومه همدان)، ثم آتيك من عام قابل وانطلق الرجل[2] لكن وفد الأنصار جاء في رجب قبل الموسوم الذي يليه وقابل الرسول ﷺ.[3]

وممن قابل الرسول ﷺ من القبائل بنو شيبان بن ثعلبة من بني بكر بن وائل.

ففي رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما أمر الله عز وجل نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه.. إلى أن قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٥؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٧١.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد، ج٣/ ٣٩٠؛ وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٢٤.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ١٢٥؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٤؛ وانظر: بيعة العقبة الثانية من هذا الكتاب.

فتقدم أبو بكر فسلم، فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق وقد غلبهم لساناً وجمالاً، وكان له غديرتان تسقطان على تَرِيبته، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألفٌ من قِلّة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشدُ ما نكون غضباً حين نَلقى، وأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا أخرى لعلك أخا قريش؟. فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فها هو ذا. فقال مفروق: إلام تدعونا يا أَخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: ((أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد)) فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أَخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا، فقال رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ [الأنعام].

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أَفِكَ قوم كذبوك وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هانئ فقال: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وإني أرى تَرْكَنا ديننا واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أول له ولا آخر لذلك في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، إن الذلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً، ولكن نرجع وترجع وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك، وإنا بما نزلنا بين صِرين أحدهما اليمامة والآخر السمامة فقال له رسول الله ﷺ: ((ما هذان الصريان)) قال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: ((ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويعرِّشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال النعمان اللهم فلك ذلك يا أخا قريش فتلا

عليهم رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥﴾ [الأحزاب] ثم نهض)).[1]

لقد كان الرسول ﷺ عالمياً في الدعوة، لم يقبل من يحد من دعوته جغرافياً أو بشرياً أو زمانياً، ولذلك لم يقبل من بني شيبان إلا إجابة مُطْلَقةً دون أن تحدهم حدود فارس بلداً أو سياسة، وذلك سبب لبحث الرسول ﷺ عن ملجأ آخر للدعوة مع تضييق قريش عليه وعلى دعوته ومنعها من الانتشار، كما أن الرسول ﷺ كان صادقاً وفياً للعهد، لا يريد أن يقبل شرطاً ثم ينقضه، كما كان يؤسس لدولة إسلامية لها قاعدتها التي تنطلق منها إلى العالم كافة لا يحدها سكان ولا تقطع معاهدة أو تخالفها ابتداء، كما أنه لا يريد شروطاً تجعل السلطة من بعده لقبيلة معينة، أو زعيم معين فهي دعوة ودولة عالمية، الإخلاص والاستجابة فيها لله تعالى وحده، وكأنه ﷺ يعلم أن هذه الدعوة ستخوض حرباً مع كسرى فارس في يوم من الأيام ولذلك لم يقبل استثناء شيبان، وقد كان موقف بني شيبان واضحاً، لكنه لم يكن كافياً للنبي ﷺ. ومع ذلك فقد أثرت فيهم دعوة النبي وأسلموا بعد فتح مكة، وكانوا من أوائل المشاركين في فتوح فارس والعراق أيام أبي بكر بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني بعد حوالى ثلاثة عشر عاماً من هذا اللقاء.

---

(١) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢/١٦٧، ١٦٨؛ والصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج٢/٥٩٦ ـ ٥٩٨؛ والصلابي، السيرة، ج١/٤٤٣، ٤٤٤.

اللقاء الأول بالأنصار

كان الأوس والخزرج من سكان المدينة المنورة،[١] وقد حدثت بينهم بعض الحروب أشهرها يوم بُعاث،[٢] وقد كان كل منهم يبحث عن من يحالفه، ويعضده ويساعده في هذه الحرب فكان أول سماع لهم بالإسلام فقد روى البخاري عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: (كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله لرسول الله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم وجرحوا فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم إلى الإسلام).[٣]

كانت هذه الحرب باعثاً لهم على السماع من النبي ﷺ حينما قدموا لمكة لطلب المساعدة، كما كانت مما دفعهم للاتحاد خلف النبي ﷺ، وقد عضتهم الحرب وأكلتهم فوجدوا بعد ذلك في مبادئه الوحدة والسلام.

وكان يهود يعيشون في المدينة مع الأوس والخزرج،

---

(١) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص١٠٩؛ والنويري، نهاية الأرب، ج١/ ٣١١؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٧٢.

(٢) أحد أشهر أيام الحروب بين الأوس والخزرج في العصر الجاهلي. انظر: جواد علي، المفصل، ج٤/ ١٤٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار، ج٤/ ٢٢١.

ويحدثونهم بقرب مبعث نبي آخر الزمان ويهددونهم به، فقد ذكر أن يهوداً إذا وقع بينهم وبين جيرانهم من الأوس والخزرج قتال هددهم يهود وقالوا لهم: (إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطل زمانه سنتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وإرم). فلما قابل الأوس والخزرج رسول الله ﷺ أثناء عرضه لنفسه على القبائل قال بعضهم لبعض: (تعلمون والله إنه للنبي الذي تواعدكم به يهود فلا يسبُقنكم إليه).[1] وفي رواية لابن إسحاق ذكر فيها هذه التفصيلات وغيرها.[2]

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز وعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

وعندما لقيهم رسول الله ﷺ، قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله به في الإسلام، أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٩.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٧٦.

وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أطل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: إنا قد تركنا قومنا، ولا يقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا.[١]

فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم لقياهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام حتى انتشر بينهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وصلها ذكر رسول الله ﷺ.[٢]

بيعة العقبة الأولى

كان الرسول ﷺ يخبر أصحابه بقرب تحديد مكان معين لهجرتهم، يجتمع فيه معهم في ذاك المهاجر، وكان بعضهم قد

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٢٩.
(٢) ابن كثير، السيرة النبوية، ج١/١٧٦؛ مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ج١/ ٢٨٨.

هاجر فعلاً إلى الحبشة قبل ذلك، وما زالوا هناك، لكن الجميع كان بانتظار المكان الموحد الذي يأذن به الله لرسوله بالهجرة ليلحقوا به أو يسبقوه. وقد زاد ضغط قريش لإخراج الرسول ﷺ من مكة ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

وقد أخبر الرسول ﷺ أنه رأى ذلك المكان، ورؤيا الأنبياء حق، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى عن النبيﷺ أنه قال: ((رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هجر فإذا هي المدينة يثرب)).[1]

وثبت أن اختيار المدينة كان بأمر الله وتقديره، ورد عن ابن عباس في البخاري قال: (بعث رسول اللهﷺ لأربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أمر بالهجرة فهاجر عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين).[2]

كما أن يهود قد استوطنوا المدينة وما حولها من نخيل وحَرّات لمعرفتهم بموطن مهاجره ﷺ، وانتظاراً له لكنهم جحدوا حينما علموا به ﷺ، فعاقبهم الله على يديه.

وفي العام الثاني عشر من البعثة النبوية اتفق مجموعة ممن

---

(١) رواه البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٤/ ٢٥٢.

(٢) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٦/ ٢٥٣.

أسلم من الأنصار، وكانوا قد عرفوه وعلموا بدعوته قبل ذلك التاريخ بأشهر عدة، على أن يرتبوا للقاء خاص مع رسول الله ﷺ.

كانوا اثني عشر رجلاً،[١] عشرة من الخزرج واثنان من الأوس،[٢] فيما عرف ببيعة العقبة الأولى.

وقد روى شاهد عيان من أصحاب ليلة العقبة وهو عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: ((تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتون ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه)) فبايعنا على ذلك).[٣]

كانت هذه البيعة بيعة دعوة سلمية عمادها التوحيد والطاعة،لم يذكر فيها قتال ولذلك سماها بعض الصحابة ببيعة النساء مقارنة ببيعة الرسول ﷺ للنساء التي لم يرد فيها القتال ولا النصرة.

ولذلك فإن هذه البيعة ركزت على الدعوة والأمانة وطاعة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، أمر العقبة الأولى، ج١/ ٢٩٢.
(٢) د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج ١ / ١٩٧.
(٣) رواه البخاري، باب وفود الأنصار، ج٤/ ٢٥١.

الله ورسوله، (فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ معهم (مصعب بن عمير) رضي الله عنه، وأمره أن يقرأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة مصعب). [1] وكما كان إمامهم في الصلاة رضي الله عنه. [2]

وكان شاباً صغيراً تعلم القرآن، وصبر على الإسلام وثبت عليه، وكان اختيار رسول الله ﷺ له يعني الثقة التامة فيه لأداء هذه المهمة بين أهل المدينة، وهي مهمة النيابة عن رسول الله في الدعوة في المدينة وتم استقباله رضي الله عنه في المدينة ونصرته والدفاع عنه من قبل المسلمين الأوائل من الأنصار.

لقد كانت لمصعب رضي الله عنه جهود كبرى بمساعدة رجال من الأنصار، لنشر الإسلام في المدينة بالحسنى، وخصوصاً بين الأشراف والزعماء الذين لهم تأثيرهم على البقية. روى ابن هشام عن ابن إسحاق بسنده (أن أسْعد بن زُرارة رضي الله عنه خرج بمُصعب بن عُمير رضي الله عنه يريد به دارَ بني عَبْد الأشهل، ودارّ بني ظَفَر، وكان سعدُ بن مُعاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زَيْد بن عبد الأشهل ابن خالةِ أسعد بن زُرارة، فدخلَ به حائطاً من حَوائط بني ظَفر، على بئر يقال لها: بئر مَرَق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسْلم، وسعد بن معاذ،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٣؛ وانظر: حديث البخاري، ج٤/ ٢٦٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٢٩٣.

وأُسَيْد بن حُضَير، يومئذ سيدَا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مُشْرك على دين قومه، فلمَّا سمعا به قال سعدُ بن معاذ لأُسيد بن حُضَير: لا أبا لك، انطلق إلى هاذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفِّها ضُعفاءنا، فازجُرهما وانهَهُما عن أن يَأتيا دارَيْنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفيتُك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدّما، قال: فأخذ أسيد ابن حُضَير حَرْبته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعدُ بن زرارة، قال لمصعب بن عمير، هذا سيَّد قومه قد جاءك، فاصدُق الله فيه قال مصعب: إن يجلسْ أكلمه. قال: فوقف عليهما مُتشمتاً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلسُ فتسمعَ، فإن رضيتَ أمراً قبلتَه، وإن كرهتَه كُفّ عنك ما تكره؟ قال: أنصفتَ، ثم رَكَز حربته وجلس إليهما، فكلَّمه مُصْعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأجمَله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتتطهّر وتطهِّر ثوبك، ثم تَشهد شهادة الحقّ، ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحقّ، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حَرْبته وانصرف إلى سعد

وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سَعد بن معاذ مُقْبلا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيْدُ بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقَف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما باساً وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما أحببتَ، وقد حُدّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد ابن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليُخْفروك. قال: فقام سعد مُغضَباً مبادراً، تخوّفاً للذي ذُكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعدٌ مطمئنين، عرف سعد أن أُسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشمِّتاً، ثم قال لأسعد بن زُرارة: يا أبا أمامة، (أما والله) لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْت هذا مني، أتَغْشانا في دارنا بما نكره ــ وقد قال أسعدُ بن زرارة لمصعب بن عُمير، أي مُصْعب، جاءك والله سيِّد من وراءَه من قومه، إن يتبعك لا يتخلَّف عنك منهم اثنان ــ قال: فقال له مصعب: أوَتقعُدْ فتَسمع، فإن رضيتَ أمراً ورَغبت فيه قَبِلْتَه، وإن كرهته عَز لنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفْت ثم ركز الحربةَ وجلس، فعرض عليه الإسلامَ، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم، لإشراقه وتسهُّله، ثم قال لهما: كيف تَصْنَعُون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهَّر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحقّ، ثم تصلي ركعتينْ، قال: فقام فاغتسل وطهر

ثوبيه، وتشهد شهادة الحقّ ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أُسيد بن حُضَير.

قال: فلما رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا (وأوصلنا) وأفضلُنا رأياً، وأيمننا نقيبةً، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمْسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسْعد ومُصْعب إلى منزل أسعد ابن زُرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون).[1]

لقد اجتهد مصعب بن عمير رضي الله عنه أيما اجتهاد عاماً كاملاً أسلم فيه على يديه عدد كبير من الأنصار، وأعدهم للقاء رسول الله ﷺ في مكة في موسم حج سنة ثلاث عشرة للبعثة النبوية.

لقد صدق مصعب بن عمير رضي الله عنه في هذا العمل وفي غيره وهو من الذين قال الله فيهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].[2]

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٣٦.

(٢) تفسير الطبري، ج١٠/ ٢٨٠؛ تفسير ابن كثير، ج٢/ ١٤٨٨.

بيعة العقبة الثانية

سبق القول أن رسول الله ﷺ قد بعث مصعب بن عمير رضي الله عنه للدعوة وتعليم الإسلام في المدينة فعمل بجد سنة كاملة، حتى انتشر الإسلام في بيوت الأنصار في المدينة، فكانوا يتدارسون القرآن ويصلون خلف مصعب وينتظرون لقاء النبي ﷺ. ومن المتوقع أن هناك تنسيقاً بين مصعب وبين رسول الله ﷺ ليَقدُم بهؤلاء المؤمنين، حيث كانوا أشد شوقاً للقاء رسول الله ﷺ ينتظرون ذلك ويعدون له.

كما كان رسول الله ﷺ ينتظر أمثال هؤلاء المصدقين المؤمنين. ويظهر أنه خلال لقاءات مسلمي الأنصار في المدينة كان يقول بعضهم لبعض كما روى جابر بن عبد الله (متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة ويخاف؟!).[١]

وقد أورد ابن إسحاق رواية مطولة ووافيه في سيرته عن شاهد عيان لبيعة العقبة الثانية بتفصيلات دقيقة حيث روى عن كعب بن مالك قال: ((خرجنا إلى الحجّ وواعدنا رسول الله ﷺ من أوسط أيام التشريق قال: فلما فرغنا من الحجّ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبدُ الله بن عمرو بن حَرام أبو جابر، سيِّد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنَّا نكتم مَن معنا من قومنا من المشركين أمرَنا، فكلَّمناه وقلنا

(١) انظر: د. أكرم العُمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج١/ ١٩٨.

له: يا أبا جابر، إنك سيِّد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنَّا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حَطباً للنار غداً، ثم دَعَوْناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسْلم وشَهد معنا العَقبة، وكان نقيباً.

قال: فنِمْنا تلك الليلة مع قومنا في رِحالنا، حتى إذا مضى ثلثُ الليل خَرَجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، نتسلَّل تسلُّلَ القَطا مُسْتخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، معنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب، أمّ عمارة، إحدى نساء بني مازن بن النجَّار، وأسماء بنت عمرو ابن عديّ، إحدى نساء بني سلمة، وهي أم منيع.

قال فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسولَ الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه (عمه) العبَّاس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحَبّ أن يحضُر أمرَ ابن أخيه ويتوثَّق له، فلما جلسَ كان أوّل متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج ـ قال: وكانت العرب إنما يسمُّون هذا الحيَّ من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوْسها: إن محمداً منَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزّ من قومه ومَنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترَوْن أنكم وافُون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم تروْن أنكم مُسْلموه وخاذِلوه بعد الخروج له إليكم، فمن الآن فَدَعُوه، فإنه في عزّ

ومَنَعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سَمِعنا ما قلت، فتكلَّم يا رسول الله، فخذْ لنفسك ولربك ما أحببتَ.

قال: فتكلم رسولُ الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال ((أُبايعكم على أن تَمْنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم)). قال: فأخذ البَراء بن مَعْرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحقّ (نبيًّا)، لنمنعنَّك مما نَمْنع منه أُزُرَنا فبايعْنا رسولَ الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحَلْقة، وَرثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القولَ، والبرَاءُ يكلّم رسولَ الله ﷺ، أبو الهيثم بن التَّيِّهان، قال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، ـ يعني اليهود ـ وإنَّا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فَعَلْنا ذلك ثم أظهرك اللهُ أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسّم رسولُ الله ﷺ، ثم قال: ((بل الدم الدم، والهَدْم الهَدْم، أنا منكم وأنتم مني، أُحارب مَنْ حاربتم، وأسالِم من سالمتم)).[١]

لقد كان حضور العباس بن عبد المطلب دليلاً قوياً على وقوفه رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ ومعرفته بسر هذا اللقاء، وهذا يدعم رأي القائلين بإسلامه مبكراً رضي الله عنه،[٢] وأنه كان يكتم الأمر عن قريش.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤٠ ـ ٤٤٢.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٢٧١؛ وانظر بحثاً خاصاً عن إسلام العباس.

كما كان المبايعون من الأنصار (رضوان الله عليهم) يدركون تماماً خطورة البيعة وما يترتب عليها، حيث تختلف شروطها عن بيعة العقبة الأولى، فقد كانت بيعة حرب تختلف عن بيعة النساء.[1] وكان هذا واضحاً، ومع ذلك فإن العباس بن عبادة الأنصاري أراد للقوم أن يعوا ما يقومون به، فقال: (يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكُم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة؟ قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه).[2]

لقد كانوا صادقين في البيعة، فقالوا لرسول الله ﷺ والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل مِنىً غداً بأسيافنا، فقال ﷺ: ((لم نُؤْمَر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم))،[3] فرجعوا إلى رحالهم. وقد طلب منهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا

(١) انظر: الغزالي، فقه السيرة، ص١٦٠.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤٦.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤٦.

له اثني عشر نقيباً من بينهم، فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، كانوا على قومهم.[1]

وتذكر رواية أخرى عن كعب بن مالك (فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب (المنازل)! هل لكم في مذمم والصباة معه، قد اجتمعوا على حربكم) قال: فقال رسول الله ﷺ: ((هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب، أتسمع أي عدو الله أما والله لأفرغن لك)).[2]

كانت البيعة ذات معنى عند قريش، وإن لم تعلم بتفصيلاتها، لكنها أحست بها فلما أصبح القوم جاءت جماعة من قريش إلى الأنصار وهم يشكّون في الأمر فحدثوا المشركين من أهل المدينة، الذين كان الأمر خافياً عليهم فقالوا: (يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم أو منكم، قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه، قال وصدقوا لم يعلموه قال: وبعضنا ينظر إلى بعض، قال ثم قام القوم).[3]

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ١٩٨.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤٧.
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤٨.

ثم إنهم أتوا عبد الله بن أُبَيّ بن سلول زعيم المنافقين، وكان لا يزال على شركه وكان محل ثقتهم فسألوه وما كان يعلم بالأمر، فقال: إن هذا لأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته كان فانصرفوا عنه.[1]

وبعد انصراف الناس من منى تيقنت قريش من الخبر، فحاولوا أن يمسكوا بأناس من الأنصار فتمكنوا من القبض على سعد بن عبادة ﵁، وربطوا يديه إلى عنقه وجروه إلى مكة وأخذوا يضربونه ﵁ ويؤذونه ويسبونه، فقال له رجل من قريش يظهر أنه مسلم، أو ممن يعطفون على المسلمين: (ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد، قال: بلى لقد كنت أُجيرُ لجبير بن مطعم بن عدي، وللحارث بن حرب بن أمية، قال له الرجل ويحك فاهتف باسم الرجلين، ففعل سعد، وخرج الرجل إليها فوجدهما عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج يُضرب الآن بالأبطح وإنه ليهتف باسمكما ويذكر أن بينه وبينكما جواراً، قال: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قال: صدق والله إن كان ليجير لنا تجارتنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده، قال: فجاء فخلَّص سعداً من بين أيديهم فانطلق).[2]

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٤٨.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٥٠.

كانت البيعة استعداداً للتضحية بالمال والنفس ودفاعاً عن الله ورسوله ودعوته.[1]

كما أنها احتاجت إلى تنظيم وترتيب سبقها على يد مصعب ابن عمير رضي الله عنه ومن آمن من الأنصار.

كما كان الأمر واضحاً عند الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو سيقف معهم كما وقفوا معه: ((الدم الدم والهدم الهدم)).[2]

كما أنه لن يدعهم وسيبقى معهم وقد وفى لهم بهذا الأمر بعد فتح مكة وغزوة حنين، حيث قال: ((يا معشر الأنصار ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكم)).[3]

وقد علمهم الرسول صلى الله عليه وسلم الترتيب والنظام والمسؤولية والشورى في وقت واحد بأن طلب منهم أن يُخرجوا لهم ـ بأنفسهم ـ اثني عشر نقيباً يكونون مسؤولين عن قومهم، فالمرحلة القادمة غير الماضية والترتيب والتنظيم وتحديد المسؤوليات واستشارة الآخرين من سنته صلى الله عليه وسلم.[4]

وهكذا كان الأنصار منظمين ومستعدِّين لاستقبال

---

(١) انظر: عبدالكريم الزيد، فقه السيرة، ص٢٩٠.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/١٩٨.

(٣) انظر: أحداث غزوة حنين وتوزيع الغنائم من هذا الكتاب.

(٤) انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص١٥٩.

الرسول ﷺ في دار الهجرة مدينة المختار دار الأنصار ورجالها.

ولا شك أن الأنصار كانوا مرتبين بطريقة جيدة، حيث كتموا الأمر عن بقية قومهم، ولم يعلم بالبيعة إلا المسلمون الصادقون، كما أنهم ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا صادقين في بيعتهم مستعدِّين لتقديم أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، حيث نجد أن ما يزيد على الخمسين رجلاً من المبايعين شهدوا بدراً مع النبي ﷺ،[1] مع أنها معركة عاجلة عُذِرَ من لم يخرج فيها مع النبي ﷺ. وفي هذا وغيره ما يبيِّن فضل هؤلاء المبايعين على الإسلام وأهله إلى يوم الدين بما نصروا نبيه وحبيبه ﷺ.

كان الرسول ﷺ حريصاً كل الحرص على السرية والاحتياط واتخاذ الأسباب الدنيوية كافة، مع أنه ﷺ أعظم المتوكلين على الله، حيث أخفى الموعد ومكان الاجتماع، ولم يعلم به إلا قلة، كل منهم كان له دوره، فعمه العباس جاء معه ليصحبه وليستوثق له، وكان علي بن أبي طالب عيناً للنبي ﷺ على فم الشعب، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه عيناً على الطريق، كما أنه ﷺ كان حريصاً على اختصار الكلام وحفظ الوقت وخفض الصوت،[2] ومع أهمية الموضوع وخطورته، فسرعة الإنجاز فيه كانت مهمةً مع السرية، ويتضح من محاولات اعتداء قريش

(١) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص١٥٤.
(٢) انظر: الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٤٦٤.

وكفارها على سعد بن معاذ وغيره من الأنصار، أن قريشاً كانت مستعدة لإيذاء كل من يؤمن بالله والرسول، سواء من قريش أم من خارجها، وأنها مستعدة لمحاربة الرسول ﷺ حتى لو خرج وترك مكة، وقد كان الأنصار في حوارهم يدركون هذا ويدركون أن العرب وقريش سترميهم عن قوس واحدة.

وكان في بيعتهم الاستعداد للقتال وحماية الرسول ﷺ ودعوته، وإن كان لم يؤمر بعد بالقتال ولم يؤذن له، وكان ﷺ يبين أن هذا الأمر سيأتي دوره بإذن من الله.

وقد كانت هذه البيعة إعلاناً بفتح باب الهجرة لرسول الله ﷺ مستقبلاً وفي أجل قريب ـ بإذن الله ـ وفي الوقت نفسه فتح باب الهجرة للمؤمنين ليسبقوا الرسول ﷺ إلى المدينة لتأسيس المجتمع المسلم ودولته النبوية ونظامه المدني والعسكري.

ولذلك فإن مشركي مكة شددوا قبضتهم على المسلمين بعد أن عرفوا تفاصيل البيعة، فضيقوا على الصحابة من مسلمي قريش وغيرهم في مكة، فكانوا يشكون لرسول الله ﷺ فيأمرهم بالهجرة، ويقول: ((إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها)) .[1]

هجرة أصحاب الرسول ﷺ

الهجرة في اللغة العربية الخروج من أرض إلى

---

(١) انظر: صالح الشامي، من معين السيرة، ص١٥٣.

أخرى:[1] وفي المصطلح الشرعي: هي ترك بلد الشِّرْك إلى بلد الإسلام، والبلد الذي يَسْلَم فيه بدينه،[2] انطلاقاً من قوله تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)﴾ [النساء].

أما سببها فهو الحفاظ على الدين وتطبيقه ونصرته والتجمع مع الرسول ﷺ وأصحابه والاستعداد لنشر الدين وبذل المال والنفس في سبيل الله، وتسهيل عبودية الله لعباده بإقامة نظام يتيح لهم ذلك. وكانت بيعة العقبة ثاني أيام التشريق من السنة الثالثة عشرة للبعثة النبوية.

وقد أمر الرسول ﷺ الصحابة في مكة وخارجها بأن يلحقوا بإخوانهم في المدينة، ومن المؤكد أنه لولا مضايقة قريش لما خرج المهاجرون، وبالتالي فالمهاجرون أخرجوا من ديارهم كما يقول الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ (٨)﴾ [الحشر].

---

(١) الزبيدي، تاج العروس، ج٣/ ٦١١.

(٢) انظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٣/ ٦١١.

أبو فارس، محمد عبدالقادر، في ظلال السيرة الهجرة إلى النبوية، ط١، دار الفرقان، عمان، ١٤٠٢هـ.

كما كان الأنصار (رضوان الله عليهم) محبين لهؤلاء المهاجرين مواسين لهم، قائمين بحقهم فامتدحهم الله بذلك في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر].

وقد ذهب المهاجرون الأوائل ومن ناصرهم بفضل السَّبْق على غيرهم، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة].

كان الصحابي الجليل أبو سلمة بن عبد الأسد أول المهاجرين من مكة إلى المدينة،[1] فقد هاجر بأهله إلى الحبشة وعاد قبيل بيعة العقبة، حيث آذته قريش وضيقت عليه، فعزم الهجرة مرة أخرى ولكن إلى المدينة، فمنعته قريش من

---

(١) هو: الصحابي الجليل عبدالله بن عبد الأسد المخزومي من أوائل المسلمين، زوج أم المؤمنين أم سلمة، قبل النبي ﷺ ابن عمة النبي ﷺ برة بنت عبد المطلب، من أوائل المهاجرين إلى الحبشة، توفي في المدينة بعد غزوة بدر فتزوج الرسول ﷺ من بعده أم سلمة.

انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٣٣٥؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٦٨.

اصطحاب زوجته وولده، فقصت أم سلمة (رضي الله عنها) قصة هجرة هذا البيت من المؤمنين تقول (رضي الله عنها): (لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحَّلَ بعيره ثم حَمَلني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقودُ بي بعيره، فلما رأته رجالُ بني المُغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهْط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمَة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المُغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت: ففرّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت أخرج كلّ غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريباً منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمِّي، أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخْرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين وَلدها! قالت: فقالوا لي : إلحقي بزوجك إن شئت. قالت: وردّ بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني. قالت فارتحلتُ بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خَلْق الله. قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيتُ حتى أَقْدَم على زوجي،

حتى إذا كنت بالتَّنْعيم لَقيتُ عثمان بن طَلْحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميّة؟ قالت: فقلت أريد زوجي بالمدينة. قال أَوَما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وُبَنيّ هذا. قال: والله مالك من مَتْرك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوِي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحَّى (عني) إلى شجرة، فأضَّجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح، قام إلى بعيري فقدّمه فرَحله، ثم استأخر عني، وقال: أركبي. فإذا ركبت واستويتُ على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخُليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة). [١]

كما كان عبدالله ابن أم مكتوم من أوائل المهاجرين. [٢] ولا شك أن أعداد المهاجرين توالت وتكاثرت بالتدرُّج.

وقد نقل الرواة من كانت له حادثة تستحق من وجهة نظرهم النقل. وبعد أبي سلمة وصل إلى المدينة مهاجراً عامر بن ربيعة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٦٩.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٣٦.

مع امرأته (ليلي بنت أبي حثمة بن غانم)، ثم عبد الله بن جحش بأهله وبأخيه الكفيف أبي أحمد[1] وزوجته، حتى أغلقت دار بني جحش ولم يبق بها أحد[2]حتى النساء منهم هاجرن إلى المدينة، منهن زينب بنت جحش وأم حبيب وأم قيس بنت جحش وغيرهن.[3] وكان أبو أحمد الكفيف شاعراً قال أبيات في هجرتهم، ومنها قوله:

إلى الله نغدو بين مثنى وواحد

ودين رسول الله بالحق دينها[4]

كما هاجر عمر بن الخطاب، ومعه عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، ويقص عمر القصة فيقول: (اتَّعدتُ لما أردنا الهجرةَ إلى المدينة، أنا وعيَّاش بن أبي رَبيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهميّ التَّناضب من أضاة بني غفار، فوق سَرِف،[5] وقلنا: أينا لم يُصْبِح عندها فقد حُبِس فَلْيَمْضِ صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبس عنا هشام وفُتن فافتتن.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٧٠.

(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٧٠.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٧١.

(٤) انظر: المصدر السابق في أبيات طويلة.

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٧٤.

ولما قدمنا المدينةَ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارثُ بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابنَ عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قَدِما علينا المدينةَ، ورسولُ الله ﷺ، بمكة، فكلَّماه وقالا: إنّ أُمَّك قد نذرت أن لا يمسّ رأسَها مُشطٌ حتى تراك، ولا تستظلّ من شمس حتى تراك، فرقّ لها، فقلت له: يا عياش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرْهم، فوالله لو قد آذى أمَّك القملُ لامتشطت، ولو قد اشتدّ عليها حرُّ مكة لاستظلَّت، قال: فقال: أبرّ قسمَ أُمَّي، ولي هناك مالٌ فآخذه، قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصفُ مالي ولا تذهبْ معهما. قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أمَّا إذ قد فعلتَ ما فعلت، فخُذْ ناقتي هذه، فإنها ناقةٌ نجيبة ذَلول فالزَمْ ظهرها، فإن رابك من القوم ريبٌ فانجُ عليها.

فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا بن أخي، والله لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعْقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخا ليتحوّل عليها، فلما استوَوْا بالأرض عدَوَا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عيَّاش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقاً، ثم قالا: يا أهل

مكة، هكذا فافعلوا بسُفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.[1]

يقول ابن عمر عن عمر: فكنَّا نقول: ما الله بقابلٍ ممن افتتن صَرْفاً ولا عَدْلاً ولا توبة، قوم عَرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكُفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قَدم رسولُ الله ﷺ المدينةَ، أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا وقولهم لأنفسهم ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعث بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام بن العاص، فلما أتتني جعلت أقرأها بذي طوى، أُصعِّد بها فيه وأصوِّب ولا أفهمها، حتى قلت: اللهمّ فَهِّمنيها. قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أُنزلت فينا، وفيما كنَّا نقول في أنفسنا ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري، فجلست عليه، فلحقتُ برسول الله ﷺ وهو بالمدينة.[2]

ثم تتابع المهاجرون ومنهم طلحة بن عبيد الله، وعمار بن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٧٦.

ياسر، وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود، وبلال بن رباح، وزيد بن حارثة، وحمزة بن عبد المطلب، وعبد الرحمن ابن عوف، وأبو كبشه، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، والزبير بن العوام وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعتبة بن غزوان، وعثمان بن عفان وغيرهم.[١]

ومن أشهر قصص المهاجرين قصة صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه،[٢] فقد كان في مكة يعمل بالحدادة، فكوّن مالاً نتيجة جهده وعرقه، وقد آمن برسول الله ﷺ وصدقه ودخل الإسلام مبكراً.

فلما أراد رضي الله عنه الهجرة جاءه كفار مكة وقالوا له: (أتيتنا صعلوكاً فقيراً فكثر مالك عندنا وبلغت ما بلغت ثم تنطلق بنفسك ومالك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم: أرأيتم إن تركت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. فوصف لهم مكان ماله فخلُّوا سبيله).[٣]

وقيل إنه لحقه منهم جماعة من الرجال فأخرج من كنانته أربعين سهماً، وكان رجلاً رامياً فقال: «لا تصلون إليّ حتى أضع في كل رجل منكم سهماً، ثم أَصيرُ بعد إلى السيف

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٢٩، ٣٣١.
(٢) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٢٦٦.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٧٨.

فتعلمون أني رجل، وقد خلّفت بمكة قينتين فهما لكم» .[1]

ثم واصل طريقه إلى المدينة، وقد قال الرسول ﷺ عنه: ((ربح البيع أبا يحيى)) .[2]

وقيل إنه نزلت فيه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة] .[3]

وقد تحدثت المصادر عن منازل هؤلاء المهاجرين على أصحابهم من الأنصار الذين قال الله عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر] .

نزل بعض العزاب على عزاب مثلهم كنزولهم على سعد بن خيثمة الأنصاري رضي الله عنه .

وقد كان الأنصار يتنافسون على إيواء المهاجرين وسكناهم ومواساتهم، حتى أنهم كانوا يقترعون على سكنى من يصلهم من المهاجرين،[4] وكانت الآيات تتنزل على الرسول ﷺ في

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٢٢ .
(٢) الواحدي النيسابوري، أسباب النزول، ص٣٩؛ الطبري، تفسيره، ج٢/ ٣٣٢ .
(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣١؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٢٢ .
(٤) عبد الحميد طهماز، سيرة النبي، ص٢٤٦ .

الثناء على المهاجرين والوعد بنصرهم. يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٤١) ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾ [النحل]. وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (١١٠)﴾ [النحل].(١)

وقد تحدثت آياتٌ كثيرة عن المهاجرين ﵃.(٢)

وبعد هجرة الرسول ﷺ كان عدد من المستضعفين الراغبين في الهجرة يتعرضون للحبس والإيذاء فكان الرسول ﷺ يدعو لهم، فقد ورد عن أبي هريرة ﵁ أن النبيﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول: ((اللهم أَنجِ عياش بن أبي ربيعة، اللهم أَنجِ سلمة بن هشام، اللهم أَنجِ الوليد بن الوليد، اللهم أَنجِ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشددْ وطأتك على مضر اللهم اجعلها سنين كسِنيِّ يوسف)).(٣)

وقد كان استقبال الأنصار للمهاجرين رائعاً وحميمياً، حيث توزع المهاجرون على بيوت الأنصار، واسوهم في المسكن

---

(١) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٢١.

(٢) انظر: الجمل، أحمد عبد الغني النجولي، هجرة الرسول ﷺ وصحابته في القرآن والسنة، ط١، دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٩هـ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب دُعاء النبي ﷺ: أجعلها عليهم سنين كسني يوسف، ج٢/ ١٥.

والطعام والمال، وضربوا أروع الأمثلة في الإيثار وقدموهم على أنفسهم فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)﴾ [الحشر].

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه (باب مناقب الأنصار وقول الله عز وجل والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا).[1] والأمثلة على ذلك كثيرة منها: ما حدث قبل هجرة الرسول ﷺ من تنافس الأنصار على استضافة المهاجرين، ومنها ما حدث بعد وصول الرسول ﷺ وقيامه بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. ولعل من أفضل الأمثلة في ذلك قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع، حيث آخى بينهما النبي ﷺ فجاء سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف فقال: يا عبد الرحمن إني من أكثر الأنصار مالاً، فأَقسمُ مالي نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها. قال عبد الرحمن: بارك الله لك في مالك وأهلك،

---

(١) البخاري في صحيحه، ج٤/ ٢٢١.

أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطٍ ـ جُبْنٍ ـ وسمن ثم تابع الغدو يبيع ويشتري.

ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة[1] فقال النبيﷺ ((مهيم؟)) قال: تزوجت، قال: ((كم سقت إليها))؟ قال: نواة من ذهب، أو وزن نواة من ذهب قال: ((أَوْلِمْ ولو بشاة)).[2]

وقد روى أحمد بن حنبل عن أنس بن مالك قال: قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤونة، وأشركونا في المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله قال: ((لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم)).[3]

وقد وضع البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار باباً سماه: (باب قول الله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) روى فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبيﷺ فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: ((من يضم أو يضيف هذا))؟ فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول اللهﷺ فقالت: ما

---

(١) الصفرة نوع من الأطياب الصفراء من الزعفران وغيره يظهر أثره على الوجه.

(٢) رواه البخاري في المناقب، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، حديث رقم: ٣٧٨٠، ج٤/ ٢٢٢.

(٣) ابن كثير، تفسيره، ج١/ ١٨٥١، تفسير الآية (٨ ـ ١٠) سورة الحشر؛ مسند الإمام أحمد، ج٣/ ٢٠٠.

عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: ((ضحك الله الليلة أو عجب من فعليكما)) فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر]. (١)

كان الأنصار حريصين على مخالطة المهاجرين ومصاهرتهم، فهذا (حمزة بن عبد المطلب) عم النبي ﷺ يخطب خولة بنت قيس من بني النجار من الأنصار فيتزوجها، ويقيمان بيتاً مؤمناً عماده مهاجر وأنصارية، كان بيت عم رسول الله ﷺ، وكان يزوره في البيت وتنقل عنه خولة الأحاديث، وقد روت أن رسول الله ﷺ دخل على عمه حمزة فسمعته يقول: ((إن الدنيا خَضِرةٌ حلوة فمن أخذها بحقها بورك له فيها، ورُبّ مُتخوِّض في مال الله ومال رسوله له النار يوم يلقى الله)). (٢)

---

(١) رواه البخاري، ج٤/ ٢٢٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٦/ ٣٦٤. وانظر: محمد الصوياني، السيرة النبوية، ج١/ ٢٣٧.

أهل الصُفّة

وهم عدد من المهاجرين سكنوا حجرة في مسجد رسول الله ﷺ، عرفوا بأهل الصفة، كانوا عزاباً فقراء لا يجدون ما يأكلون،[(١)] وكان رسول الله ﷺ إذا أتته صدقة بعث إليهم (أهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها).[(٢)]

وكان ﷺ يُجري عليهم كل يوم (مُداً من تمر بين رجلين).[(٣)]

وكان رسول الله ﷺ يطلب من ذوي العائلات من الصحابة إطعامهم، فكان الأنصار (رضوان الله عليهم) يأخذون بعضاً من أصحاب الصفة إلى منازلهم فيطعمونهم ويواسونهم: (إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء وإن رسول الله ﷺ قال: ((من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس))، وإن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق النبي ﷺ بعشرة).[(٤)]

---

(١) أبو تراب الظاهري، أصحاب الصفة، دار القبلة، جدة، ١٤٠٣هـ.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٣/ ٢٨٧؛ وانظر: الصوياني، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٩؛ وانظر: ما كتبه د. أكرم العمري عن أهل الصفة في المجتمع المدني في عهد النبوة، خصائص وتنظيماته الأولى، ص٨٩.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٣/ ٢٨٧.

(٤) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج٢/ ٢٢ ـ ٣٣. الصوياني، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٢.

وكان بعض هؤلاء يحاول العمل في السوق كحمال، أو يحتطب أو يؤدي أي شيء ممكن من البيع أو الشراء البسيط، وما كانت ظروفهم تساعدهم ومع ذلك فإن الرجل إذا باع حطباً أو غير ذلك جاء بطعام لأصحابه.[1]

---

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج١/٣٤٨؛ وقد أجريت أبحاث كثيرة حول أهل الصفة.

هجرة النبي ﷺ

«أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأهله ودورهم في الهجرة»

لم يكن رسول الله ﷺ أول من هاجر من الأنبياء، فقد سبقه إبراهيم عليه السلام في الهجرة، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت].

كما أن اعتداءات المشركين واستفزازاهم ومحاولتهم حبسه أو قتله ﷺ كانت وراء هجرته من مكة، وهي أحب بلاد الله إلى الله وإلى رسوله. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الأنفال]، ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء].

ولا شك أن قوم الرسول ﷺ من كفار قريش تضامنوا على إخراجه، كما عبر الله عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ

﴿أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد].

وتؤكد آية الهجرة والصحبة إخراج الذين كفروا للرسول ﷺ ونصر الله في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

كما تؤكد الأحاديث ﷺ أنه أُخرج من مكة، وكان يدعو على من أخرجه. ومن ذلك ما رواه البخاري أنه كان يقول: ((اللهم ألعن شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء)).(١)

ورسول الله ﷺ يحب مكة أشد الحب، بها ولد وترعرع وتزوج ورزق، إضافة إلى ما يعلمه الرسول ﷺ ويعلمه الناس من حرمة مكة، ومكانتها عند الله، فهي أفضل أرض الله وبها كان أول مسجد وضع في الأرض ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران].

ولعل ما يشهد لذلك قول الرسول ﷺ حينما التفت إلى مكة عند هجرته ((والله إنك لأحب أرض الله إلي وإنك لأحب أرض

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب (١٣). ج٢/ ٢٢٥.
والوباء الذي كان منتشراً في مكة هي الحمى.

الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك)).[1]

هاجر عدد من أصحاب رسول الله ﷺ في الفترة من بيعة العقبة التي وقعت في اليوم الثاني عشر من شهر ذي الحجة سنة ١٣هـ للبعثة النبوية، الأولى قبل الهجرة، وزادت أعدادهم بالتدرّج، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه مستعداً للهجرة تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ للصحابة بالهجرة، إلا أن الرسول ﷺ كان يطلب التريث من أبي بكر الصديق لأمر يعلمه الله ورسوله، ولا يعلمه الصديق نفسه.

وكان الرسول ﷺ ينتظر الأمر من الله تعالى والإذن له بالهجرة بتدبيره سبحانه وتعالى وهو الذي يمكر لرسول الله ويهيئ له ﷺ. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وكان الصديق رضي الله عنه يستعد لحاجة رسول الله في الهجرة وخصوصاً الرواحل وما يلزمها، قبل أن يعلم أنه رفيقه في الهجرة.

وقد أحست قريش بعد بيعة العقبة بما يعزم عليه الرسول ﷺ من الهجرة إلى المدينة، وخشيت من ذلك خصوصاً بعد أن سبقه عدد من المهاجرين، ولذلك اجتمعوا للمكر

---

(١) الزرقاني، المواهب، ج١/٣٢٨؛ ابن ماجه، سننه، كتاب السير، باب إخراج الرسول ﷺ من مكة، ص٢٣٩.

بالرسول ﷺ،[1] كما أشارت الآية الكريمة. وقد أورد ابن إسحاق رواية مطولة عن ما جرى في هذا الاجتماع ونتائجه وما حدث بعده: (ولما رأت قريش أن الرسول ﷺ قد كانت له شيعةٌ وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروجَ أصحابه من المهاجرين إليهم، عَرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم مَنَعة، فحَذِرُوا خروجَ رسول الله ﷺ إليهم، وعَرفوا أنه قد أجمع لحَرْبهم. فاجتمعوا له في دار النَّدوة ـ وهي دار قصيّ بن كلاب التي كانت قريش لا تَقْضي أمراً إلا فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ، حين خافوه).

وقد اجتهدوا في وضع الخطط ليحولوا دون هجرة الرسول ﷺ حتى لو أدى ذلك لقتله ﷺ.

قال ابن إسحاق: عن عبد الله بن عبّاس (رضي الله عنهما) قال: (لمَّا أجمعوا لذلك، واتَّعدوا أن يدخلوا في دار النَّدوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ، غَدوْا في اليوم الذي اتّعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يومَ الزَّحْمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بتلة،[2] فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفاً على بابها، قالوا: من الشيخ، قال: شيخ

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٤٨٠٩؛ ابن كثير، السيرة، ج١/ ٨٣٤.

(٢) البتلة: الكساء الغليظ. ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٤٨١، حاشية رقم: (١).

من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يُعْدمكم منه رأياً ونُصحاً، قالوا: أجل، فأدخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشرافُ قُرَيش.

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً، قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله، زُهيراً والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يُصيبه ما أصابهم، فقال الشيخ النجديّ: لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يُكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره. فتشاوروا، ثم قال قائل منهم: نُخرجه من بين أظهرنا، فننْفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنَّا فوالله ما نُبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، إذا غاب عنّا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وأُلْفتنا كما كانت. فقال الشيخ النجديّ: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تَرَوْا حُسْن حديثه وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلّ على حيّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم عليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبِّروا فيه رأياً

غير هذا. قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كلّ قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربةً رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعَقْل، فعقلناه لهم. قال: فقال الشيخ النجديّ: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

فأتي جبريلُ ﵇ رسول الله ﷺ، فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. قال: فلمَّا كانت عَتْمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه، فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعليّ بن أبي طالب: نمْ على فراشي وتَسجّ بِبُرْدي هذا الحَضْرمي الأخضر، فَنَمْ فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في بُرْده ذلك إذا نام.

ولما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، قال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تُحرقون فيها.

قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ حَفْنة من تراب

في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدُهم وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يَرَوْنه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس]. حتى فرغ رسولُ الله ﷺ من هذه الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تَنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيَّبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم. قال: فوضع كلّ رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلّعون فَيرَوْن عليّاً على الفراش متسجِّياً بِبُرْدة رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائماً، عليه بُرده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام عليّ رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا).

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله عزّ وجلّ من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال]. وقول الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ

رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور]» .(١)

ولعل عائشة (رضي الله عنها)، ابنة الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار، وأم المؤمنين زوجة المصطفى وشاهدة عيان لبداية أحداث الهجرة، خير من ينقل الحديث عن حادثة الهجرة وبرواية البخاري، وما نقلته (رضي الله عنها) يعد من أوسع الأحاديث في تفصيلات الهجرة مع ما لحقه من روايات أخرى.

عن عروة بن الزبير أن عائشة (رضي الله عنها) زوج النبي ﷺ قالت: (لم أعقل أبويَّ قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرِج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكَلَّ وتقرئ الضيف وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم: إن أبا بكر، لا يخرج مثله ولا يُخرج، أتخرجون رجلاً

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٤؛ وانظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٢٧؛ وانظر: ابن كثير، تفسيره، ج١/ ٧٣٤.

يُكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكَلَّ ويقرئ الضيف ويعين على نوائب الحق، فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة: وقالوا لابن الدغنة مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره فلْيصلِّ فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بَكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أَجَرْنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانْهَهُ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الإستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إليّ ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أُخفرت في رجل عقدت له، فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل، والنبي ﷺ يومئذ بمكة، فقال النبي ﷺ للمسلمين: إني أُريت دار هجرتكم ذات نخل بين

لابتين، وهما الحرتان، فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة وتجهز أبو بكر قِبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك؟ بأبي أنت قال: نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر، وهو الخبط أربعة أشهر، قال: عروة قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله قال: فإني قد أُذن لي في الخروج فقال أبو بكر: الصحابة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ : نعم قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: بالثمن قالت، عائشة فجهزناهما أحث الجهاز وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت (ذات النطاقين)، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو غلام شاب ثَقِفٌ لَقِنٌ ـ حاذق سريع الفهم ـ، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يُكتادان

به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل وهو لبن منحتهما ورضيفهما، حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خريتاً، والخريت الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً في آل العاص بن وائل السهمي وهو على دين كفار قريش فأمناه، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، براحلتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل). [١]

ومن رواية عائشة وغيرها يتبين لنا دور الصديق رضي الله عنه وأهل بيته في المشاركة في الهجرة. إنها مشاركة مباشرة من أبي بكر الصديق بنفسه وماله وأهله.

فمن هذه الرواية للبخاري وما يدعمها من روايات نجد أن الصديق رضي الله عنه كان صادقاً حينما قال لرسول الله ﷺ (إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله). [٢]

إن فرح أبي بكر الصديق بصحبة الرسول ﷺ كان عظيماً وأي صحبة كتلك الصحبة الواردة في القرآن الكريم ((ثاني

---

(١) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ، ج٤/ ٢٥٧.

(٢) من رواية البخاري، ج٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٨.

اثنين))، حيث نال الصديق من الشرف ما لم ينله أحد من البشر بتلك الصحبة المباركة المنصوص عليها في القرآن الكريم ((إذ يقول لصاحبه)).

تلك الفرحة يعبر عنها الصديق ﷺ حينما قال الرسول ﷺ: ((قد أُذِن لي بالخروج)) فيقول الصديق ﷺ: الصحابة بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كان مستشرفاً متشوقاً لصحبة خير البشر، في رحلة مباركة جاهز لترك الأهل والوالدين والمال ومرافقة رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: نعم.

كانت مرافقة وموافقة نبوية مباركة، ولا شك أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولذلك فإن هذه الصحبة كانت بعلم الله ورضاه لنبيه بخير رفيق وصاحب.

كان الصديق ﷺ متوقعاً لهذه الصحبة، وإن كان لم يعلم بها إلا ساعة وافق له النبي ﷺ على ذلك. وعندها بكى أبو بكر الصديق من شدة الفرح،[1] ومع هذا فقد كان الصديق محتاطاً للأمر، قد اشترى راحلتين من خاصة ماله لمثل هذا الموقف فقال: يا نبي الله إن هاتين راحلتين قد كنت أعددتهما لهذا، وكان أبو بكر ﷺ رجلاً ذا مال فكان حين استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فقال له رسول الله ﷺ: لا تعجل لعل الله يجد لك صاحباً، قد طمع بأن يكون رسول الله ﷺ، إنما يعني نفسه،

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٤.

حين قال له ذلك، فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك. [١]

وقد خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر للهجرة من خوخةٍ [باب صغير] في ظهر بيت أبي بكر مستخفياً عن الناس الذين ربما كان بعضهم يرقب الباب الرئيس لبيت أبي بكر مظنة وجود الرسول ﷺ فيه بعد بيت الرسول ﷺ وهذه هي الحقيقة، حيث انطلقا منه إلى جبل ثور واختفيا في غار فيه.

وحين خروج الرسول ﷺ للهجرة قدم الصديق الراحلة هدية للمصطفى ﷺ الذي يقدر جهد أبي بكر ويحترم بذلك عطاءه، لكنه رفض أن يأخذ الراحلة إلا بثمنها. [٢] إنه الكريم ﷺ عزيز النفس الذي لم يكن في يوم من الأيام عالة على أحد، كما أن أبا بكر رضي الله عنه قد استأجر عبد الله بن أريقط ليكون دليلاً لهما على طريق مجهولة لقريش لا يتوقعها الناس، إذ إنهما كانا ينويان مخالفة الطريق المشهورة، حتى لا يتم العثور عليهما، وهذا بترتيب الصدّيق مع الرجل الذي كان محل ثقة ومأموناً وإن كان غير مسلم في حينها. [٣]

ولعل نقل عائشة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق لهذه

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٥.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٧؛ انظر: محمد الغزالي، فقه السيرة، ص ١٧١.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٥.

الروايات الدقيقة عن حادثة الهجرة وتفصيلاتها التي رواها البخاري (رحمه الله) في صحيحه من أثر آل أبي بكر على الدعوة، حيث كانت عائشة أفضل من نقل الحديث بتفصيلاته.

كما كان أبو بكر أيضاً رضي الله عنه خير رفيق لرسول الله في تلك الرحلة، وظهر منه مواقف مختلفة كان يفدي رسول الله ﷺ بنفسه، منها:

إن الرسول ﷺ لما أقبل على غار جبل ثور ليدخله طلب منه الصديق رضي الله عنه الانتظار حتى يتأكد من الغار وسلامته للرسول ﷺ.

وأثناء جلوسهما في الغار إذا جحر فألقمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه رجله وقال يا رسول الله إن كانت لدغة أو لسعة كانت بي.[١]

كان رضي الله عنه خائفاً مشفقاً على رسول الله ﷺ أثناء وجودهما في الغار، ففي حديث انس بن مالك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت راسي فإذا أنا بأقدام القوم فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا، فقال ﷺ: ((اسكت يا أبا بكر اثنان الله ثالثهما)).[٢]

إن هذا الترقب والخشية وثقة رسول الله ﷺ بالله وتوثيقه أبا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، في المغازي، ص١٥١ ـ ١٩.

(٢) رواه البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٤/ ٢٦٣.

بكر وطمأنته ذكر في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].
نعم أنزل الله سكينته على رسوله.

وقد خدم أبو بكر رسول الله ﷺ أثناء الطريق، فقد ورد في رواية لابن أبي شيبة عن البراء بن عازب، قال: (اشترى أبو بكر من عازب رحلاً بثلاثة عشر درهماً، فقال أبو بكر لعازب: مُرِ البراء فليحمله إلى رحلي، فقال له عازب: لا، حتى تحدثني كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ، حيث خرجتما والمشركون يطلبونكما، قال: رحلنا من مكة فأحيينا ليلتنا ويوماً حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فانتهينا إليها، فنظرت بقية ظل فسويته ثم فرشت لرسول الله ﷺ فروة، ثم قلت: اضطجع يا رسول الله! فاضطجع ثم ذهبت أنفض ما حولي هل أرى من الطلب أحداً، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أريد، فسألته فقلت لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش، قال: فسماه فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: هل أنت حالب لي؟ قال: نعم، قال: فأمرته فاعتقل شاة من غنمه فأمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم

أمرته أن ينفض كفيه، فقال هكذا فضرب إحدى يديه بالأخرى، فحلب كثبة من لبن، ومعي لرسول الله ﷺ أداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فأتيت رسول الله ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت، ثم قلت: أتى الرحيل يا رسول الله، فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله وبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: أما والله ما على نفسي أبكي، ولكني أبكي عليك قال: فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: اللهم اكفناه بما شئت، قال: فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها، فوثب عنها، ثم قال: يا محمد، قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه، فو الله لأُعمينّ على من ورائي من الطلب، وهذه كنانتي فخذ سهماً منها فإنك ستمر على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك، فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لنا في إبلك، وانصرف عن رسول الله ﷺ ودعا له رسول الله ﷺ، وانطلق راجعاً إلى أصحابه، ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى قدمنا المدينة ليلاً، فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه). [1]

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٤٥. وانظر: جزء من الرواية عند البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي ﷺ، ج٤/ ٢٥٧.

وقد كان أبو بكر ﷺ رديف النبي ﷺ، وكان معروفاً للناس لكثرة تردده على الشام، فكان يعميهم عن معرفة الرسول ﷺ وهو مطارد، روى ابن أبي شيبة:

عن أنس أن أبا بكر كان رديف النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان أبو بكر يختلف إلى الشام، فكان يُعرف، وكان النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يُعرف، فكانوا يقولون: يا أبا بكر! من هذا الغلام بين يديك؟ قال: هادٍ يهديني السبيل، قال: فلما دَنَوا من المدينة نزلا الحرة وبعثا إلى الأنصار، فجاؤا، قال: فشهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يوماً كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه، وشهدته يوم مات، فما رأيت كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه ﷺ.(١)

وعند خروج أبي بكر الصديق للهجرة حمل ماله كله، خمسة آلاف درهم أو تزيد فدخل والده أبو قحافة وكان عَمِيَ وذهب بصره، فقال لأسماء ابنة أبي بكر: إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه فقالت له: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، ووضعت حجارة في كوة من البيت ووضعت عليها ثوباً ووضعت يده عليها، فقال لا بأس، وكانت الفضة في ذلك الزمن كتلاً كالحجارة توزن ولا تعد.(٢) وسكت

(١) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٤؛ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٢.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص٤٥٢.

الشيخ وكان لم يُسْلِمْ بعد، حيث كان إسلامه عام الفتح.[1]

كانت بنات أبي بكر من المساهمات في رحلة الهجرة، فقد ورد عن أسماء (رضي الله عنها) قالت: جهزت سفرة النبي ﷺ في بيت أبي بكر حين أراد أن يهاجر إلى المدينة، فلم نجد لسفرته ولا سقائه ما نربطهما به، فقلت لأبي بكر: والله ما أجد شيئاً اربطه به إلا نطاقي قالت: فقال: شقيه باثنين فاربطي بواحد السقاء وبالآخر السفرة، فلذلك سميت ذات النِّطاقين.[2]

وقد تعرضت أسماء نفسها للأذى من مشركي مكة بعد خروج الرسول ﷺ للهجرة، تقول أسماء: (لما خرج رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت لا أدري والله أين أبي؟ قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي).[3]

وكانت أسماء بنت أبي بكر زوجة الزبير بن العوام هاجرت إلى المدينة بعد الرسول ﷺ وأبيها (وهي حبلى بعبد الله بن الزبير رضي الله عنه فوضعته في قُباء، فلم ترضعه حتى أتت به النبي ﷺ

---

(١) ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ٤٦١.

(٢) ابن أبي شيبة، ص١٤٤؛ ورواه البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/ ٢٥٨.

(٣) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٧.

فأخذه فوضعه في حجره، فطلبوا تمراً ليحنكوه حتى وجدوها فحنكوه فكان أول شيء دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ وسماه عبد الله). [١]

كما كان عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه يختلف بالطعام لرسول الله ﷺ ولوالده الصديق وهما في الغار، [٢] قبل أخذهما طريق المدينة، كما كان يأتيهما بالأخبار.

كما كان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه يروح عليهم بغنم الصديق ليأخذوا من حليبها، وقد صحب الرسول والصديق في رحلة الهجرة. [٣]

علي رضي الله عنه وفداؤه للرسول ﷺ وأداء أماناته

حينما تشاورت قريش ليلة الهجرة فيما يفعلونه برسول الله ﷺ واتفقوا على قتله مجتمعين أطلع الله نبيه على ذلك، وأمره جبريل أن لا يبيت على فراشه، فدعا ﷺ علياً بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يبيت على فراشه، وتسجى علي رضي الله عنه ببرده الأخضر، وخرج النبي ﷺ على القوم وهم عند الباب فلم يروه،

---

(١) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٢؛ ورواه البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/ ٢٥٩.

(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٠. ورواه البخاري في صحيحه، ج٤/ ٢٥٦.

(٣) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٠.

وأعمى الله أبصارهم عنه فأخذ حفنة من تراب وضعها على رؤوسهم وهو يقرأ من سورة يس ﴿يسٓ (١) وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ [يس].

وقد بقي المشركون يرقبون بيت النبي ﷺ، وكان بعضهم يرى الفراش وعلي رضي الله عنه فيه مسجى، فيظنونه النبي ﷺ وينتظرون، مما أعطى النبي ﷺ فرصة للخروج مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى الغار.[1]

و هذا العمل البطولي من علي رضي الله عنه واستعداده لفداء الرسول ﷺ يأتي ضمن أعمال جليلة وعظيمة قام بها ابن عم رسول الله ﷺ وصهره المبشَّر بالجنة للنبي ودعوته، وهو الذي تربى على الإيمان في بيت رسول الله ﷺ. وقد تضافرت جهود علي مع جهود أبي بكر وأهله لخدمة الرسول ﷺ في الهجرة، وأكمل بعضها بعضاً. ولا تناقض في ذلك فهو تكامل وتنافس في عمل الخير، ومحبة الرسول ﷺ وخدمته وحمايته.

وقد تأخر علي رضي الله عنه عن الهجرة قليلاً بأمر من الرسول ﷺ

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٢.

يؤدي الأمانات والودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ لقريش، بمن فيهم المشركون، وكان علي رضي الله عنه أهلاً لأداء الأمانة ومحل ثقة رسول الله ﷺ، [1] والمؤمنين والناس جميعاً.

وقد بقي علي رضي الله عنه ثلاثة أيام بعد رسول الله ﷺ في مكة أدى فيها الأمانات ثم لحق برسول الله ﷺ في المدينة. [2]

ويتضح أن قريشاً لا تشك في أمانة الرسول ﷺ وتثق به على أموالها، وكان ﷺ أميناً حق أمين، رغم ظروف خروجه المفاجئة للهجرة، ورغم عدائهم له ومحاولتهم قتله وصاحبه. فقد أدى أماناتهم ﷺ واختار أقرب الناس إليه وأوثقهم عنده للمهمة.

الطريق إلى المدينة[3]

مكث رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق ثلاثة أيام في غار حراء في جبل ثور جنوب غرب مكة عكس اتجاه الطريق إلى المدينة زيادة في السرية وبعيداً عن الطلب.

وقد جعلت قريشٌ جائزة مقدارها مائة من الإبل لمن يأتي

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٨٢.
(٢) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٣.
(٣) انظر: حديث عائشة المطول عند البخاري، وهو أكثر الأحاديث تفصيلاً عن الهجرة برواية عروة بن الزبير، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدية، ج٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٨.

برسول الله ﷺ حياً أو ميتاً،[1] ما دفع الكثيرين للبحث عن رسول الله ﷺ بجدية تامة في كل اتجاه وطريق قريباً من مكة.

ومع وصول المشركين إلى الغار أكثر من مرة فإن الله حمى نبيه ﷺ.

فلما هدأ بحثُ المشركين وطلبهم خرج رسول الله ﷺ ليلاً من الغار، ومعه أبو بكر الصديق والتقيا بعبد الله بن أُريقط دليلهما ومعه الراحلتين، فسلك بهما الطريق من أسفل مكة ثم عارض بهما الساحل، ثم مر بهما على مجازات وطرق وأودية ما كان الناس يسلكونها إلى المدينة،[2] زيادة في التعمية على المطاردين. ما كانت تلك المسالك مظانّ أن يعبرها المسافر العادي، وكان رسول الله ﷺ مستخفياً، ولذلك استأجر مع أبي بكر هذا الخبير بالطريق الخِرِّيْت ـ أي الدليل الحاذق ـ، كما وصفته أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).[3] وفي الطريق وقعت لهم حوادث عدة، ومنها ما رواه أبو بكر قال: أخذنا علينا بالرصد فخرجنا ليلاً فأحيينا ليلتنا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة.[4]

---

(١) انظر: صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/٢٥٦؛ أكرم العُمري، صحيح السيرة، ج / ٢١١.

(٢) أُلفت أبحاث ودراسات عدة ووقعت خرائط عن الطريق التي سلكها الرسول ﷺ في هجرته إلى المدينة.

(٣) انظر: حديث البخاري الوارد في الهجرة من هذا الكتاب.

(٤) من رواية البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٣٩١٧، وانظر: ج٤/ ٢٦٢.

من القصص المشهورة في طريق رحلة الهجرة قصة أم معبد صاحبة الخيمة التي مر بها الرسول ﷺ. وقد ضعَّفَ أكرم العُمري معظم الطرق والتفصيلات الواردة في القصة، سوى طريق واحد مختصر جاء في روايته: ولما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر يستخفيان، نزلا بأم معبد فقالت: والله مالنا شاة وإن شياهنا لحوامل فما بقي لنا لبن فقال رسول الله ﷺ: ((أحسبه ـ فما تلك الشاة؟ فأتي بها فدعا رسول الله ﷺ بالبركة عليها ثم حلب عُسَّاً ـ إناءً ـ فسقاه، ثم شربوا فقال: أنت الذي تزعم قريش أنك صابئ؟ قال: إنهم ليقولون قال أشهد أن ما جئت به حق، ثم قال أتبعك؟ قال: لا حتى تسمع أنا قد ظهرنا)).[1]

وللروايات تفصيلات أخرى،[2] وقد جاء لها شواهد من أبيات شعرية سُمعت بمكة أوردها ابن اسحق وفيها:

جزى الله ربّ الناس خير جزائه
رفيقين حلاَّ خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر ثم تروّحا
فأفلح من أمسى رفيق محمد

(١) انظر: د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج١/ ٢١٤. وانظر: تخريجه للرواية التي رجح صحتها في نفس الموضع.

(٢) انظر لمزيد من التفصيلات، الصلابي، السيرة النبوية، ج١/ ٥٠٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣/ ١٨٨.

ليهْنَ بنو كعب مكان فتاتـــــهم
ومقعدها للمؤمنين بمرصـــد

وأم معبد بنت كعب من خزاعة.[1]

كما أن من أشهر القصص الواردة في طريق الرسول ﷺ إلى المدينة قصة سُراقة بن مالك رضي الله عنه التي وردت بطرق عدة عند البخاري وغيره، ومن أكثرها تفصيلاً ما ورد برواية عبدالرحمن بن مالك المدلجي وهو ابن أخي سراقة بن مالك ابن جعشم أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: «جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما من قتله، أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أَسودة بالساحل أراها محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت فحططتُ بزجِّه الأرض وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتها فرفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٣٨.

فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها أضرّهم أم لا فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام تقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عثان ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني إلا أن قال أَخْفِ عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمان، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ثم مضى رسول الله ﷺ». (١)

وقد ورد ما يفيد أن الرسول ﷺ أخبره بسقوط ملك كسرى وأنه سيلبس سواريه(٢).

وتؤكد الروايات وفاء سراقة بما طلب منه الرسول ﷺ، وأنه

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/ ٢٥٦؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص١٤٦.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة ج٢/ ١٩.

قام بصرف بعض الباحثين عن النبي ﷺ عن المكان الذي يسير فيه.[1]

إن الإنسان ليعجب أن تأتي هذه البشارة بسواري كسرى في وقت كان الرسول ﷺ مطارداً من المشركين مطلوباً منهم حياً أو ميتاً، حيث جعلت أعظم الجوائز لمن يأتي به.

ومع ذلك فهو يحدث سُراقَةَ عن فتح فارس بلاد كسرى، وأن هذا الإعرابي سيلبس سوراي كسرى التي ما كان يجرؤ الأعراب على مشاهدتها بأعينهم أو الوصول إلى المدائن عاصمة كسرى التي تحتضنها، فكيف براعي الإبل هذا يلبسها. وقد قابل سراقة رسول الله ﷺ مرجعه من حنين والطائف في الجعرانة فأطلعه على الكتاب، فيقول رسول الله ﷺ: اليوم يوم بر ووفاء أدنُ فدنا من الرسول ﷺ وأسلم.[2]

وقد حدث بالفعل ما أخبر به ﷺ، فكانت معجزة ضمن عدد من المعجزات النبوية. ففي خلافة عمر رضي الله عنه فتحت المدائن وأتي بالغنائم وفيها سوارا كسرى وتاجه وبساطه وجواهره الغالية.

ويتذكر عمر رضي الله عنه الوعد النبوي ويستدعي سراقة بن مالك

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/ ٢٥٧؛ وابن أبي شيبة، المغازي، ص١٤٦.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة، ج٢/ ٤٨٩، ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ١٩.

وفي مسجد رسول الله ﷺ فيلبسه سواري كسرى، ويقول له قل: ((الله أكبر الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز والبسهما سراقة بن جعشم أعرابياً من بني مدلج)).[1]

ورفع بها عمر صوته، ثم أُركب سراقة وطيف به أسواق المدينة والناس حوله، وهو يكبر ويردد قول عمر، حتى شهد أهل المدينة تلك المعجزة تتحقق بعد قرابة خمسة عشر عاماً من وعد رسول الله ﷺ لسراقة.

ومن الأحداث الأخرى في الطريق إلى المدينة أن ركباً من المسلمين كانوا في طريقهم من الشام ومعهم الزبير بن العوام رضي الله عنه لقوا رسول الله ﷺ فكسا الزبير رضي الله عنه رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً.[2]

ومن المعروف أن الزبير متزوج من أسماء بنت أبي بكر. وقد خدمت رسول الله ﷺ في إعداد ما يحتاجه للرحلة كما أنه ابن لصفية عمة رسول الله ﷺ. وقد أسلم مبكراً، كما ورد أن طلحة بن عبيد الله لقيها أيضاً وهو عائد من الشام فكساهما.[3] ولعله كان في القافلة ذاتها.

كما ورد أن رسول الله ﷺ مرّ بإبل لرجل أسلمي بالجحفة

(١) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٢/ ١٩، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧/ ٦٨.
(٢) صحيح البخاري، ابن حجر، فتح الباري، ج٧/ ١٩٣٦.
(٣) انظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٢.

وفيها غلام راعٍ فقال لمن هذه؟ قال الغلام: لرجل من أسلم، فالتفت إلى أبي بكر وقال: ((سلمت إن شاء الله))، ثم قال له: ما اسمك قال: مسعود، فالتفت ﷺ إلى أبي بكر وقال: ((سعدت إن شاء الله)).[1] وكان ﷺ يحب التفاؤل.[2]

وقد ورد أن الرسول ﷺ حين وصل الجحفة[3] أدركه الحنين إلى مكة والشوق لها، فأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص].

قال ابن عباس: إلى مكة.[4]

فمكة هي التي اعتادها الرسول النبي ﷺ واشتاق لها سريعاً. وهذه بشارة مبكرة بفتح مكة، كان خروج الرسول ﷺ من مكة مؤقتاً؛ حيث سيعود بإذن الله فاتحاً منتصراً، بعد أن يُخزي الله الكافرين، الذين منعوه من نشر الإسلام فيها، وأنا اكتب هذه الأحرف في ساحة الحرم المكي الشريف أواخر شهر جمادى الآخرة ١٤٣١هـ في هذه اللحظات أتذكر صدق ما وعد الله، وكيف علا ذكر الرسول ﷺ وأصبح ذكر المعاندين له شر ذكر،

---

(١) انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٥.

(٢) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٥٦.

(٣) الجُحفة: قرية بين مكة والمدينة، وهي ميقات أهل مصر. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢/ ١١١. (بالقرب من رابغ حالياً شمال جدة).

(٤) صحيح البخاري، حديث: ٤٧٧٣، باب إن الذي فرض عليك القرآن، ج٥/ ١٨؛ وابن كثير، تفسيره، ج٢/ ١٤٢٧.

وساحة الحرم غاصة بالموحدين أتباع محمد ﷺ يرفع اسمه بعد ذكر الله في الأذان والإقامة، ويصلِّى عليه في كل مكان في الحرم وغيره، وتبقى قلوب المسلمين معلقة برسوله ﷺ بعد الله، مبغضة لكل من عاداه من قريش لاعنة لهم ولمن سار على طريقهم في عداء الرسول ﷺ إلى يوم الدين. .

الوصول إلى المدينة

وصل المهاجرين والأنصار في المدينة خبرُ خُروج الرسول ﷺ (فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما طال انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أطل رجل من يهود على أطم [حصن أو بيت مرتفع] من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأبي بكر مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله ﷺ فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأول[1] الموافق ٢١ سبتمبر سنة ٦٢٢م،[2] فقام

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ج٤/٢٥٨؛ ومهدي رزق الله، السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية، ج١/٣٣٦.

(٢) انظر: الترمانيني؛ أزمنة التاريخ الإسلامي، ص١٥.

أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ حتى أصابته الشمس، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك). [1] وقد ذكرت بعض الروايات أن الذين استقبلوا رسول الله ﷺ عند دخول المدينة كانوا خمسمائة من الأنصار، [2] ما يعني أن الذين حضروا إلى قباء بعد وصول الرسول ﷺ للقائه ربما كانوا العدد نفسه أو قريباً من ذلك، مع أعداد أخرى من المهاجرين قد لا يقلون عن المائة، كما تفيد الروايات. وقد بايعه المهاجرون عند ذلك يستشعرون الخطر والتهديد الذي يحيط بالرسول ﷺ من أعدائه، وتالياً؛ فهم مستعدون لحمايته وطاعته والتضحية لأجله، وقد بايعه الأنصار مرة أخرى بعد وصوله المدينة، كما تفيد رواية البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه. [3]

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك في البخاري من أفضل ما في هذا الأمر قال: (لما قدم رسول الله ﷺ المدينة نزل في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، قال: فأقام فيها أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار قال فجاؤا متقلدي سيوفهم، قال: وكأني انظر إلى رسول الله ﷺ على راحلته وأبو بكر ردفه ومَلأُ بني النجار حوله). [4]

---

(١) من رواية البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/٢٥٨؛ واللفظ له. وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/٣٤٣.
(٢) د. أكرم العُمري، السيرة الصحيحة، ج١/٢١٨.
(٣) انظر: حديث البخاري، رقم: ٣٩١٦.
(٤) من رواية البخاري، حديث رقم: ٣٩٣٢.

وقد كان نزول رسول الله ﷺ في قباء على كلثوم بن الهدم من بني عمر بن عوف، وعلى سعد بن خيثمة، وكان يستقبل الناس في منزل سعد، وهو مكان لسكنى عدد من العزاب من المهاجرين رضي الله عنهم.(١)

لقد كان وصول الرسول ﷺ إلى قباء في المدينة يوماً مميزاً اتخذه المسلمون بداية للتاريخ الهجري لما يرون من أهميته.(٢)

وقد ورد ذكر هذا اليوم بذاته في القرآن الكريم مربوطاً بالحديث عن بناء مسجد قباء في قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

إنه إشارة إلى هذا اليوم بذاته. ولعل ذلك من أسباب اتخاذ المسلمين للتاريخ الهجري، حيث ذكروا أن القرآن الكريم أشار إلى هذا اليوم بذاته، ولذلك رأوا اتخاذ التاريخ الهجري، ورجحوه على غيره من الآراء، كما قال عمر: الهجرة فرقت بين الحق والباطل، فارضوا بها،(٣) ولذلك رأى الصحابة أنه أول الزمن الذي عز فيه الإسلام.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤٣.

(٢) انظر: عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/ ٧٥٨؛ وانظر: باب التاريخ من أين أرّخوا التاريخ، عند البخاري في صحيحه، ج٤/ ٦٧.

(٣) صحيح البخاري، باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ في كتاب مناقب الأنصار، ج٤/ ٢٦٧؛ انظر: البداية والنهاية، ج٢/ ٢٥٣؛ وعمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/ ٧٥٨.

بقي ﷺ في قباء، أقام (أربع عشرة ليلة)،[1] قام فيها ببعض الأعمال، كان أهمها بناء مسجد قباء كما ذكرنا، وهو أول مسجد بني في الإسلام، شارك في ذلك رسول الله ﷺ بنفسه. ولا شك أن رسول الله ﷺ صلى بالمسلمين فيه. وكان ﷺ يحث على الصلاة فيه فقال: ((صلاة في مسجد قباء كعمرة)).[2]

ولا يعني ربط مسجد قباء بهذه الآية تفضيله على مسجد النبي ﷺ، فكلاهما أسس على التقوى، ومسجد قباء هو المعني بهذه الآية، وصفات المطهرين وردت في أحاديث كثيرة عن أهل قباء من الأنصار وأنهم كانوا يتبعون الحجارة بالماء في الطهارة.[3]

وقد وردت تفصيلات أكثر عن بناء مسجد قباء.[4]

ولا شك أن اهتمام الرسول ﷺ ببناء المسجد في قباء وبعد ذلك مسجده في المدينة يدل على مكانة المساجد عند رسول الله ﷺ بأمر الله سبحانه وتعالى، وهي مخصصة لعبادة الله وحده: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]. فلا فُسُوق فيها ولا بيع ولا شراء، ولا اعتداء، وإنما هي لذكر الله

---

(١) من رواية البخاري، في باب مَقْدَم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ج٤/٤٦٦.

(٢) متفق عليه، انظر: تفسير ابن كثير، ج١/٩٠٨.

(٣) انظر: بحث مطول عن الموضوع عند ابن كثير في تفسيره، ج١/٩٠٨.

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٢٩٤، السهيلي، الروض الأنف، ج٢/٢٤٢.

والصلاة وقراءة القرآن، ولذلك صارت تؤدي خدمات تعليمية وسياسية وإدارية في عصر الرسول ﷺ تربط العباد بالله سبحانه وتعالى، وتزيد تعاونهم على البر والتقوى يجتمع فيها المسلمون للصلاة والتآلف والمحبة،[١] ولذلك فأول عمل قام به رسول الله ﷺ في قباء بناء مسجدها، لم يبن داراً أو قصراً أو شأناً دنيوياً، وإنما بني لله مسجداً.

وقد صلى رسول الله ﷺ أول جمعة في بني سالم بن عوف قبل وصوله إلى المدينة وكانت أول جمعة في الإسلام.،[٢] ولا يزال المسجد حيث صلى ﷺ مشهوراً في المدينة وهو أحد معالمها الرئيسة.[٣]

لم يكن بنو النجار وحدهم في الركب والحماية وإظهار القوة مع الرسول ﷺ بل كان بقية الأنصار والمهاجرين في الموكب المهيب، الذي تجاوز عدده الخمسمائة رجل.[٤]

---

(١) انظر: د. عبد العزيز اللميلم، رسالة المسجد في الإسلام، منيرة عبد الملك ابن دهيش، دور المسجد في القرن الأول الهجري، محمود شيت خطاب الوسيط في رسالة المسجد في الإسلام.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٧١؛ مهدي رزق الله، السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية، ص٢٨٦.

(٣) انظر: عبد العزيز كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، ج١/ ١٤٨.

(٤) رواه أحمد في مسنده، انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٥؛ ومهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٢٨٥.

كان الوصول للمدينة بداية استقرار للرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين، وبداية فرح وسرور ونور لأهلها الذين دخل الإسلام معظم بيوتهم، وقد خرج أهل المدينة حتى إن العواتق فوق البيوت يتراءين يقلن أيهم محمد فما رأين منظراً شبيهاً به.

وقد خرجت جواري بني النجار يرحبن برسول الله ﷺ مرددات:

نحن جَوارٍ من بني النجار

يا حبذا محمد من جار

وروي انه ﷺ قال أتحببنني؟ فقلن: أي والله قال: ((وأنا والله أحِبّكنّ)).[1]

إنه الحنو الحقيقي والود الصادق للنبي ﷺ من الأنصار صغاراً وكباراً، ظهر فرحهم حين قدم المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم: (يقولون الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء رسول الله).[2]

وفي رواية أنه عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت وتفرق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: «يا محمد يا رسول الله يا محمد يا رسول الله».[3]

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ج١٥/ ١٢٥؛ وانظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٢٨٦.

(٢) أبو شهبة السيرة النبوية، ج٢/ ٢٥.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب حديث الهجرة، ج٤/ ٢٣١١.

وبعضهم يردد: (جاء نبي الله جاء نبي الله).[(١)]

وقد شهد البراء بن عازب ـ وهو من علماء الأنصار ـ دخول النبي للمدينة فنقل مشاعر أهلها بقوله: (ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ)[(٢)] وحين دخول الرسول ﷺ المدينة تنافس الأنصار رضي الله عنهم في استضافته ونزوله عندهم، كل يريد شرف نزوله ﷺ عنده، فيستوقفونه ويطلبون أن ينزل بينهم، وكل يبدي رغبته وقدرته على إكرامه والدفاع عنه ﷺ، فيقولون: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، يريد كل منهم أن يأخذ بخطام ناقة الرسول ﷺ. فيقول: ((دعوها فإنها مأمورة))، ودارت الناقة مرات عدة حتى بركت في موضع مسجده ﷺ وكان مِرْبَداً [مِحْبَسُ الإبل وما شاكلها] لغلامين من بني النجار، وكان بعض الصحابة يصلي حوله قبل وصول رسول الله ﷺ.[(٣)]

ولكثرة الراغبين في استضافة الرسول ﷺ فقد كان محرجاً يرغب في إسعاد الجميع، وفي الوقت نفسه لديه الرغبة في النزول على بني النجار أخوال جده عبد المطلب.

فإذا بأبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه يبادر بحمل رحل النبي ﷺ

---

(١) صحيح البخاري، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/ ٢٦٤.
(٢) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٤؛ ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٥٥١.
(٣) من رواية البخاري، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/٢٦٦؛ وانظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٧٢.

من على ناقته ويدخله داره فيقول الرسول ﷺ ((المرء مع رحله)).[1]

ويبادر أسعد بن زرارة فيأخذ راحلة النبي ﷺ،[2] لقد كانت منافسة في إكرام واستضافة أفضل الخلق ذهب بها أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه.[3]

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩١؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٧٣.

(٢) انظر: مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٢٨٧.

(٣) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج١/ ٢٣٧؛ انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٨٠.

المدينة وسكانها

كانت المدينة في العصر الجاهلي تعرف بين العرب بـ(يثرب). [(١)] وقد وردت في القرآن الكريم بهذا الاسم ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وحينما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة غير اسمها ليصبح المدينة وقد سميت بذلك في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة]. وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى

(١) انظر: بحث مطول عن الموضوع عن ابن كثير في تفسيره، ج١/٩٠٨.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾ [التوبة].

وللمدينة المنورة أسماء مختلفة فهي طيبة وطابة والمباركة والمشرفة ودار الهجرة. وقد ألفت كتب خاصة عنها وعن ما ورد فيها وفضائلها.(١)

وقد شرفت بهجرة الرسول إليها ودعائه لها، ومنه قوله ﷺ: ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد)).(٢)

وقوله ﷺ: ((اللهم بارك لنا في ثمرنا وفي مدينتنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مُدِّنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه)).(٣) وقد أحبها الرسول ﷺ وجعل لها ﷺ حرمة وحِمى، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((المدينة حرم من كذا إلى كذا لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث، من أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)).(٤)

---

(١) انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة، د. صالح بن حامد الرفاعي، مركز خدمة السنة بالجامعة الإسلامية بالمدينة، ط١، ١٤١٣هـ.

(٢) البخاري، كتاب فضائل المدينة. ج٢/ ٢٢٠.

(٣) مسلم، كتاب الحج، فضائل المدينة، ج٢/ ١٠.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، حديث رقم: ١٨٦٧.

وكما قال ﷺ: ((حُرِّمَ ما بين لابَتَي المدينة على لساني)).[1] وقد وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه: «فضائل المدينة».[2]

اكتسبت المدينة المنورة صفة عاصمة الدولة الإسلامية منذ سكنها رسول الله ﷺ، واستمر ذلك في عصر خلفائه الراشدين، فصارت أعظم المدن تأثيراً على العالم قاطبة خلال تلك الفترة وما بعدها، وربما إلى يومنا الحاضر بما تنزل فيها من قرآن وسنة، ووجد من تنظيم وريادة حتى أصبح القرآن إما مدني نسبة إليها أو مكي نسبة إلى مكة.

وتقع المدينة شمال مكة بحوالى (٤٠٠) كلم باتجاه (الشام). وهي منطقة تكثر بها الحرات البركانية، ويوجد فيها العديد من الأودية، وتقوم على الزراعة بالدرجة الأولى في العصر النبوي، وتشتهر بنخيلها بمختلف أنواعه ويقيم فيها عدد من قبائل العرب، إضافة إلى يهود وبعض الأخلاط، وكان فيها حركة تجارية معقولة في تلك الفترة.[3] وهي على طريق تجارة قريش إلى الشام، وأهمّ سكانها حين قدم الرسول ﷺ إليها هم

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ١٨٦٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري، باب فضائل المدينة وأنها تنفي الناس، كتاب فضائل المدينة، ج٢/ ٢٢٠.

(٣) انظر: عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، ص٢٠.

الأوس والخزرج، وهي قبائل عربية متحضرة من الأزد اليمانية،[(١)] لهم صلاتهم القوية ببعض القبائل العربية المجاورة. وتمتد تلك الصلات إلى غساسنة الشام ومناذرة الحيرة.[(٢)]

ويقيم الأوس والخزرج في تجمعات سكنية تشكل بطون هذه القبائل.[(٣)]

ويسود السلام في الغالب علاقات هاتين القبيلتين، كما توجد مصاهرات بينهما، غير أنه وجدت بينهما الحروب أحياناً كيوم «بُعاث» المشهور بينها، الذي روى فيه البخاري عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: «كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله عز وجل لرسوله وقد افترق ملؤهم وقتلت سراتهم».[(٤)]

كما أن من أهم العناصر السكانية في المدينة المنورة حين قدمها الرسول ﷺ تجمعات وقبائل يهودية، لا تقل قوة ونفوذاً عن الأوس والخزرج، وقد تكون أقوى من الناحية الاقتصادية والعلمية، حاورهم الرسول ﷺ وناقشهم بأحسن الأساليب وأرقاها.[(٥)]

---

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١/ ٣١١. وابن قتيبة، المعارف، ص١٠٩.
(٢) انظر: محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص ٢١٨.
(٣) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١/ ٣١١.
(٤) صحيح البخاري، باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، ج٤/ ٢٦٥.
(٥) انظر: الحمد، محمد إبراهيم، الحوار في السيرة النبوية، وزارة الأوقاف، الكويت، ١٤٢٩هـ. ص١٨٧.

أشهر قبائل اليهود في المدينة

بنو قَيْنُقاع

وهم من أوائل اليهود الذين سكنوا الحجاز، وكانوا يقيمون في المدينة المنورة يحالفون الأوس والخزرج، وكانت لهم حصون وأراض يزرعونها فكانوا يسكنون قرب وادي (بطحان)،[1] وهو من أخصب أودية المدينة المنورة، ولهم فيه مزارع وحصون كثيرة.

وكانوا يملكون أشهر سوق تجاري في المدينة قبيل الهجرة النبوية، ويسمى (سوق بني قينقاع)،[2] وكانوا يسيطرون عليه، وهناك أفراد من هذه القبيلة يعملون بالتجارة، وبعضهم يعمل بمهنة الصياغة وبعض الصناعات اليدوية الأخرى، وآخرون يعملون بالزراعة.

وبنو قينقاع هم أول قبائل اليهود التي نازعت الرسول ﷺ في المدينة، ولذلك كانوا أول قوم من يهود أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة المنورة، في السنة الثانية من الهجرة، بسبب اعتداء

(١) واد متوسط ينحدر من الجهة الجنوبية، ويصب في وادي العقيق ناحية زغابة. انظر: أحمد ياسين الخياري، تاريخ ومعالم المدينة المنورة قديماً وحديثاً، ص٢٨٣.

(٢) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج١/ ٣٠٤؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج٤/ ١٢٣٨.

أحدهم على إحدى نساء المسلمين وتوعدهم للرسول ﷺ. [1]

بنو النضير

هي إحدى قبائل اليهود الذين سكنوا المدينة المنورة، وكانوا يقيمون في الجنوب الشرقي من المدينة على وادي (مذينيب). [2] ويمتلكون مزارع وحصوناً عدّةً في المدينة، ومن أشهر حصونهم حصن (كعب بن الأشرف) الرجل الذي آذى رسول الله ﷺ، فانتدب الرسول جماعة من المسلمين لقتله فقتلوه، [3] وقد حاول يهود بني النضير قتل الرسول ﷺ بإلقاء حجارة عليه من على أحد بيوتهم، حينما جاءهم يطلب منهم الاشتراك في دفع قتيلين قتلا خطأ، وذلك حسب معاهدة الرسول ﷺ معهم في الديات والتعاون مع اليهود في ذلك، فأرادوا قتله، فحاصرهم الرسول ﷺ، وأجلاهم عن المدينة، وغنم أموالهم ومزارعهم، [4] وقد أنزل الله تعالى فيهم آيات

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٦؛ د .عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص٣١؛ وانظر: غزوة بني قينقاع من هذا الكتاب.

(٢) مذينيب: مسيل يصب في وادي بطحان أحد روافد العقيق ناحية زغابة، انظر: أحمد الخياري، تاريخ معالم المدينة، ص٢٨٥؛ السهمودي، وفاء الوفاء، ج٣/ ٧٦؛ إبراهيم العياشي، المدينة بين الماضي والحاضر، ص٢٨.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٥١.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ١٩٢.

كثيرة من سورة الحشر منها قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر]،[١] وقد ورد عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال عن سورة الحشر (سورة النضير).[٢]

بنو قريظة

إحدى القبائل اليهودية الرئيسة التي عاصرت الرسول ﷺ في المدينة، وكانت قد استقرت في المدينة قبل فترة طويلة، وامتلكت الحصون والمزارع وعملت بالتجارة والزراعة، وكانوا أهل ثروة كغيرهم من اليهود، اشتهروا بحصونهم المنيعة.

وكان يهود بني قريظة آخر اليهود في المدينة حرباً للرسول ﷺ، ففي غزوة الأحزاب كان المسلمون في المدينة محاصرين من قبل الأحزاب. واظهر بنو قريظة الغدر من داخل المدينة، ومالوا لحرب المسلمين مع الأحزاب، ما جعل المسلمين بين عدوين، عدو يحاصرهم من الخارج (قريش والأحزاب)، وعدو يهددهم من الداخل، (بنو قريظة)، فلما رحل الأحزاب عن المدينة حاصر الرسول ﷺ بني قريظة حتى

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج١/ ١٨٤٥؛ وانظر: صحيح البخاري، ج٥/ ٥٨.
(٢) من رواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب الحشر، ج٥/ ٥٨.

نزلوا على حكم (سعد بن معاذ) الذي حكم بقتل الرجال وسبي النساء ومصادرة الأموال،[1] فانتهت بذلك آخر قبائل اليهود ذات الكيان المستقل في المدينة المنورة.[2]

كان اليهود جزءاً من العرب في اللغة العامة ومعظم العادات، لكنهم حافظوا على التعامل بالعبرية فيما بينهم في عباداتهم ومدارسهم.[3]

يضاف إلى هذه العناصر الرئيسة مجموعة من الأفراد المجاورين والمحالفين من عرب ويهود وقد كثر المهاجرون من خارج المدينة مما أوجد مزيداً من التنوع في السكان.[4]

كانت العصبية سائدة بين مختلف قبائل المدينة، وكان بعضهم يحالف بعضاً وخصوصاً بين يهودَ والأوس والخزرج، وكانت الخلافات والنزاعات قائمة باستمرار بين هؤلاء السكان، ولذلك فإن الرسول ﷺ تعامل مع هذا الواقع بأفضل الصور ليحصل على أفضل النتائج ويؤسس لمجتمع مدني سِلمي يسع الجميع لمن أراد الحياة الكريمة، كما جعلت رابطة العقيدة بين المسلمين هي الأساس في الولاء، وفي الوقت نفسه مدت

(١) انظر: غزوة بني قريظة من هذا الكتاب.
(٢) د. عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص٣٢، ٣٣.
(٣) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص٧٢.
(٤) د. أكرم العمري، المجمع المدني في عهد النبوة، خصائص وتنظيماته الأولى، ص٧٠.

جسور التعايش والسلام مع بقية السكان بمَن فيهم يهود فيما عرف بعد ذلك بـ (وثيقة المدينة).[1]

(١) الشعيبي، أحمد قائد، وثيقة المدينة المضمون والدلالة، كتاب الأمة العدد ١١٠، وزارة الأوقاف، الدوحة، ١٤٢٦هـ ص٢٩.
وسيرد لها مزيد من التفصيلات، في هذا الكتاب.

النزول في دار أبي أيوب الأنصاري

عندما حمل أبو أيوب الأنصاري رَحْلَ النبيﷺ تشرف بسكنى الرسول ﷺ عنده قرابة تسعة أشهر نال أبو أيوب فيها حظه من خدمة النبيﷺ وغيره من الصحابة، وكانوا يتنافسون في بعث الطعام إلى النبي. وكان أبو أيوب في الوقت الذي يقدم فيه الطعام للرسول ﷺ، يأكل مع أهله ما تبقى من طعام النبيﷺ، وإن كانوا هم الذين أعدوه ويلتمس موضوع أكل النبيﷺ ليتبارك في موضع يده الشريفة.[1] وفي يوم من الأيام صنع للنبي ﷺ طعاماً فيه ثوم وبعثه إليه، فلما جيء به إليه: سأل عن موضع أصابع النبيﷺ فقيل له: لم يأكل ففزع وصعد إليه فقال: أَحَرَامٌ هو؟ فقال النبي ﷺ: ((لا ولكني أكرهه))، قال

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٩؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٧٧.

فإني أكره ما تكره.[1] وكان النبيﷺ تأتيه الملائكة ويقول: إني أناجي من لا تناجى، ((وإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)).[2]

وقد ورد عن أبي أيوب الأنصاري أنه قال: (لما نزل عليَّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له يا نبي الله بأبي أنت وأمي إني أكره وأُعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فأظهر أنت فكن في العلو، وننزل فنكون في السفل، فقال: ((يا أبا أيوب أنِ ارفقْ بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت)). قال فكان رسول اللهﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حُبٌّ [إناء من فخار] لنا فيه ماء فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيره ننشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول اللهﷺ منه شيء فيؤذيه).[3]

وقد أقام رسول اللهﷺ في دار أبي أيوب حتى بنى مسجده وحجراته ﷺ.

وقد ذهب أبو أيوب بهذا الفخر والمنقبة إلى يوم القيامة،

---

(١) وانظر: ابن هشام، السيرة، ج٢/ ٤٩٩. وانظر رواية مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، ج٢/ ٧٩.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، ج٢/ ٧٩.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

كان الصحابة (رضوان الله عليهم) يغبطونه على ذلك حيث صارت داره مقر رسول الله ﷺ ومهبط الوحي وملتقى المؤمنين برسول الله ﷺ لأشهر عدّة.

ويرون لأبي أيوب منزلة خاصة بهذا الأمر، ولذلك فحين قدم أبو أيوب الأنصاري إلى العراق، وكان بها عبد الله بن عباس رضي الله عنه والياً على البصرة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، خرج له ابن عباس عن داره، وأنزله فيها مثلما أنزل رسول الله ﷺ في داره.[١]

إن إكرام أبي أيوب رضي الله عنه والأنصار لرسول الله ﷺ والمهاجرين ﷺ معه كان رحمة من الله وتعويضاً عمَّا فعله مشركو مكة من طرد المهاجرين من قبل قريش والسيطرة على دورهم وأموالهم في مكة، فها هم الأنصار يحسنون استقبال الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين ويقدمون المواساة لهم، وها هي الأمة إلى يوم القيامة تثني على أبي أيوب الأنصاري بإكرامه الرسول ﷺ.[٢]

(١) ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢/ ٢٨٠.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات الكبرى، ج١/ ٢٣٧؛ ابن حجر، الإصابة، ج١/ ٤٠٢؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ٤٠٢.

بناء المسجد النبوي

من أوائل أعمال رسول الله ﷺ حين وصوله المدينة تحديد موضع مسجده، فقد بركت ناقته القصواء عند موضع مسجده ﷺ[1] حيث كان (يصلي به يومئذ رجال من المسلمين وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد ابن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت راحلته هذا إن شاء الله المنزل، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين ففاوضهما بالمربد، ليتخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ثم بناه مسجداً).[2]

لقد كان همّ رسول الله ﷺ إيجاد مسجد يعبد فيه الله وحده لا شريك له،[3] وأن لا يأخذ شيئاً من مال هؤلاء الأيتام ولا من

---

(١) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٣٧.

(٢) من رواية البخاري في صحيحه واللفظ له، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ج٤/ ٢٥٤.

(٣) ألّفتْ د. سعاد ماهر كتاب «مساجد في السيرة النبوية»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

مال غيرهم. ورغم أن الرسول ﷺ يأخذ الهبة والهدية، فإنه في هذا الموضع لم يقبلها، بل أمر ﷺ بدفع الثمن من ماله ولذلك قدر قيمتها ودفع الثمن لهما، ويُعد هذا المسجد أول وقف في الإسلام والمُوقف هو المصطفى ﷺ.

كان أول عمل قام به الرسول ﷺ اختيار موقع مسجده، وأول بناء عمله الرسول والمهاجرون والأنصار معه هو بناء مسجد قباء في طريق الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، وقد جرى بناء المسجد النبوي زمن الرسول ﷺ مرتين، إحداهما في السنة الأولى من الهجرة، فور وصوله إلى المدينة، والأخرى في السنة السابعة من الهجرة، وكان البناء الأول أقل من الثاني من حيث المساحة، ومن حيث قوة البناء. وقد كان البناء الأول لمسجد الرسول ﷺ بعد اختيار الرسول ﷺ للموقع ودفع ثمنه، وكانت الأرض غير مستوية، وفيها نخل وخرائب وقبور وبعض المياه، فبدأ الرسول ﷺ بقطع النخل واستفاد منه في البناء، كما أمر بتسوية الخرائب وتصفية الماء حتى تم تنشيف الأرض وتنظيفها، ثم أمر بالقبور فنبشت وكانت قبور مشركين،[1] ثم أمر بتسوية الأرض حتى أصبحت صالحة للبناء، وقد شارك ﷺ بنفسه في بناء المسجد، وكان يرتجز مع الصحابة أثناء البناء والصحابة يشاركونه في البناء. وقد

(١) من رواية البخاري في صحيحه، باب التعاون في بناء المساجد، ج١/ ١١٤.

روى أبو سعيد الخِدري ﷺ قال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين لبنتين فرآه النبيﷺ فينفض الغبار عن عمار، ويقول ((ويْحَ عمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار)).[1] وفي عمارة الرسول ﷺ للمسجد جعل مساحته (٧٠) ذراعاً طولاً في (٦٠) ذراعاً عرضاً،[2] وقد أرسى حيطان المسجد بالحجارة، ثم بنى الجدران باللَّبِن، وجعل عرض الحائط لبنة، وقد طلب المسلمون من الرسول أن يُظلِّل المسجد مخافة الشمس فوافقهم على ذلك، فأقام السواري (الأعمدة) من جذوع النخل، ثم طرحت عليها العوارض الخشبية، ثم وضع على السقف خصف الجريد والأذخر ـ نباتٌ طيّب الرائحة ـ، وجعل وسطه رحبة خالية، وقد أصابت المسلمين الأمطار، فجعل السقف يُنزل المطر على المصلين، فاشتكوا إلى الرسول ﷺ من ذلك وطلبوا منه ﷺ (تطيين) السقف لحجز المطر عن المصلين، فقال ﷺ: ((نعم ابنوا لي عريشاً كعريش موسى ثُمامات [نَبْتٌ ضعيف قصير] وخشبات، وظِلّة كظلة موسى، والأمر أعجل من ذلك))، قيل فما ظِلة موسى قال: ((كان إذا قام أصاب رأسه السقف))،[3] فقام الرسول وأصحابه (بتطيين) السقف وعمل

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٤٩٩.

(٢) وتبلغ مساحة البناء النبوي الأول للمسجد ١٠٦٠متراً مربعاً (انظر: عبد العزيز كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة، ج١/ ١٢٤.

(٣) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج٣/ ٣٨٦.

الرسول ﷺ معهم، وجعل رسول الله ﷺ قِبلته ناحية بيت المقدس في هذا البناء الأول الذي بني قبل تحويل القبلة.[1]

وقد جعل الرسول ﷺ للمسجد ثلاثة أبواب، أحدها باب أبي بكر، وهو في الحائط الجنوبي جهة القبلة ـ الحالية ـ وذلك لأن القبلة كانت ناحية بيت المقدس، وباب عاتكة ويقال له باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه الرسول ﷺ في الجهة الشرقية. وعندما غُيِّرت القبلة سدَّ النبي ﷺ الباب الجنوبي. وقد كان ارتفاع السقف في هذه العمارة خمسة أذرع [٢,٢٥ متر]،[2]

---

(١) كتبت مؤلفات عدة حول عمارة المسجد النبوي تطرقت للعمارة الأولى، منها: عمارة وتوسعة المسجد النبوي عبر التاريخ، للشيخ ناجي محمد حسن الأنصاري، من إصدارات النادي الأدبي بالمدينة المنورة، ط١، ١٤١٦هـ؛ وتاريخ معالم المدينة قديماً وحديثاً، أحمد ياسين الخياري، النادي الأدبي بالمدينة المنورة، ١٤١٠هـ؛ والمدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، صالح لمعي، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م؛ وانظر: الدرة الثمينة في أخبار المدينة، محمد بن محمود النجار، ت ٦٤٣هـ دراسة وتحقيق د. صلاح الدين عباس، ط١، مركز بحوث المدينة، ١٤٢٧هـ، وتحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، الحسين بن عمر المراغي، ت ٨١٦هـ، تحقيق عبدالله عسيلان، ط١، ١٤٢٢هـ.، وكذلك ما كتبه عبد العزيز كعكي في الجزء الأول من موسوعته (المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة) ص١٢٤.

(٢) انظر تفصيلات ذلك عند: عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ١٧٨ ـ ١٨٠.

وقد بلغت مساحة المسجد بعد هذه التوسعة ١٤١٥، متراً مربعاً. (انظر عبدالعزيز كعكي، المجموعة المصورة لأشهر معالم المدينة المنورة ج١/ ١٢٤).

وقد أعيد بناء المسجد مع شيء من التوسعة بعد غزوة خيبر .[1]

ولا تزال حدود المسجد النبوي زمن الرسول ﷺ معروفة ومعلمة بعلامات خضراء مكتوب عليها بشكل واضح يستطيع زائر المسجد النبوي رؤيتها وقراءة ما هو مكتوب عليها .

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٣/ ٣٤٥؛ الواقدي، الغازي، ج٢/ ٦٣٦ .

الأذان

الصلاة لها مكانتها عند الديانات السماوية، ولكل فيها مكان خاص يجتمع فيه المصلون ومواعيد خاصة لذلك، ووسيلة معينة للدعوة لها، وكان فرض الصلوات الخمس في السماء حين عُرِج بالرسول ﷺ إلى السماء، وقد ناقشه في عددها ومحاولة التخفيف عن أمة محمد ﷺ نبي الله موسى عليه السلام الذي خَبِرَ بني إسرائيل وصعوبة الصلاة عليهم، إلى أن استقر أمر الله على خمس صلوات في اليوم والليلة تكون بأجر خمسين لأمة محمد ﷺ،[١] وكان أصحابه (رضوان الله عليهم) يصلون في شعاب مكة مستخفين عن المشركين، ولما هاجر ﷺ إلى المدنية كان أول عمل له في قباء بناء مسجد قباء، وكان أول عمل له في المدينة بناء المسجد النبوي ليكون مكاناً لصلاة المسلمين جماعة في أوقاتها.

---

(١) انظر: موضوع الإسراء والمعراج من هذا الكتاب.

ولم يكن في البداية ثمة وسيلة أو نداء معين لاجتماعهم للصلاة، مع أنه على ما يبدو ثبتت مواعيدها المعروفة لجميع المسلمين، غير أنه كان فيها شيء من السعة في بداية الوقت ونهايته لكل صلاة من الصلوات. وقد وضع البخاري في صحيحه باب بدء الأذان.[١]

وقد روى البخاري عن ابن عمر (كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون وقت الصلاة ليس يُنادى لها).[٢]

وقد كان المسلمون جادين في البحث عن وسيلة معينة للنداء إلى الصلاة، ومع أن الوحي كان ينزل على الرسول ﷺ فإنه في البداية لم يؤمر بشيء محدد في هذا الأمر، ولهذا كان يشاور الصحابة حوله: (فتكلموا يوماً في ذلك فقال بعضهم: اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر أفلا تبعثون رجلاً منكم ينادي بالصلاة؟)، فقال رسول الله ﷺ: ((قم يا بلال فنادِ بالصلاة)).[٣]

وقد وردت روايات تدل على أن عبد الله بن زيد

---

(١) انظر: كتاب الآذان، أول أبواب الكتاب، باب بدء الأَذان وقوله تعالى: وإذا ناديتم إلى الصلاة، ج١/ ١٥٠.

(٢) من حديث رواه البخاري، رقم ٦٠٤، باب بدء الأذان، ج١/ ١٥٠.

(٣) من حديث رواه البخاري، رقم ٦٠٤، وج١/ ١٥٠؛ وانظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٥٠٨؛ باب بدء الأذان، ج١/ ١٥٠.

الأنصاري رضي الله عنه،[1] وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كل منهما رأى من يلقنه الأذان بالألفاظ نفسها وقال صلى الله عليه وسلم: ((إنها الرؤيا)).[2]

وقد روى ابن إسحاق: (فلما اطمأنّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، واجتمع إليه إخوانُه من المُهاجرين واجتمع أمرُ الأنصار، استحكم أمرُ الإسلام، فقامت الصلاة وفرضت الزكاةُ والصيام، وقامت الحدُود، وفُرض الحلالُ والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظْهرهم، وكان هذا الحيّ من الأنصار هم الذي تبوَّأوا الدار والإيمان. وقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين قَدمها إنما يجتمع الناسُ إليه للصلاة لحين مَواقيتها، وبغير دَعْوة، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قَدمها أن يجعل بُوقاً كبُوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنُحِت ليُضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبدُ الله بن زيد بن ثَعْلبة، أخو بَلْحارث بن الخَزْرج، النداءَ، فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا رسول الله، إنه طاف بي هذه الليلة طائف: مرّ بي رجلٌ عليه ثَوْبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتَبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة،

---

(١) انظر: ترجمة عبد الله بن زيد عند ابن حجر في الإصابة، ج٢/٣١٣.

(٢) انظر: الدارمي في سننه، ج١/٣٩١؛ مسند الإمام أحمد، ج٤/٤٣؛ وابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/٥٠٩؛ وقد صححه عدد من العلماء. إبراهيم العلي، صحيح السيرة، ص١٥٠.

قال: أفلا أدلك على خير من ذلك: قال: قلت: وما هو؟ قال تقول: الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح... إلى آخر الآذان.

فلما أَخْبَرَ بها رسولَ الله ﷺ، قال: إنها لرؤيا حقّ، إن شاء الله، فقم مع بلال فأَلْقها عليه، فليؤذن بها، فأنه أَنْدَى صوتاً منك. فلما أذّن بها بلالٌ سَمعها عمرُ بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجرّ رداءه، وهو يقول: يا نبيّ الله، والذي بعثك بالحقّ، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسولُ الله ﷺ: ((فلله الحمد على ذلك)).[1]

لقد كان اختيار بلال لهذا الأمر بسبب حسن صوته درساً للأمة كلها في أن يقوم بالعمل الأفضل والأحسن لأدائه.

أصبح الأذان شعاراً خاصاً بالمسلمين إلى اليوم، إذا سمعه المسلم وغيره اقشعرت له الجلود وهربت منه الشياطين، كله ذكر وتكبير وتوحيد لله سبحانه وتعالى، ربما لا يحس بقيمته إلا من فقده في سفر أو فقد سماعه، تذرف دمعة المسلم له إذا سمعه بعد افتقاده، ويتهيب ويخشع له قلب الكافر إذا سمعه في بلاد المسلمين.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٥٠٨.

يتسابق المسلمون فيه بتحسين الصوت ورفعه، وقد أثنى الرسولﷺ على المؤذنين قي قوله: ((بلال سيد المؤذنين، والمؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة)).[1] فأصبح موضع تنافس بينهم، كل يريد أن يرفعه.

ونال بلال بن رباح رضي الله عنه شرف لقب مؤذن رسول الله ﷺ، حيث كان يرفع الأذان في مسجد الرسول ﷺ في المدينة وفي سفره معه، وقد رفعه فوق الكعبة يوم فتح مكة وقد توقف عن الأذان بعد وفاة الرسول ﷺ، وفي اجتماع الجابية أيام الفتوح في الشام طلب منه الصحابة أن يؤذن فيهم بحضرة عمر، كما كان يؤذن لرسول الله ﷺ فلما سمعوا أذانه بكوا جميعاً واخضلت لحاهم.[2]

واشتهر من المؤذنين في زمن الرسول ﷺ، عبد الله بن أم مكتوم وغيره. وقد ورد عن رسول الله ﷺ: ((إن بلال يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى ينادي ابن أم مكتوم)).[3]

وقد صار الأذان شعاراً إسلامياً ورد في القرآن الكريم في

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف، ج١/ ٢٥٤؛ وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٣٥٥.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/ ٣٥٧؛ وانظر: ابن حجر، الإصابة، ج١/ ١٦٥.

(٣) صحيح البخاري، حديث رقم: ٦١٧؛ باب أذان الأعمى إذا كان له من يخبره.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة].

إن هذا الأذان بالصوت البشري وبمعان مفهومة سامية عالية فيها ذكر لله ورفع ذكر لنبيه ﷺ، مما يميز المسلمين على غيرهم من الأمم عبر العصور في شتى أصقاع الأرض، فهو شعيرة من شعائر المسلمين في كل مكان، يعرف به إسلامهم، ولا يعذرون بترك الأذان وهم يستطيعون، بل ورد أن الرسول ﷺ أمر بأن يؤذن الراعي وهو في غنمه، فقد ورد أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال لأبي صعصعة المازني: (إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنت في غنمك أو باديتك، فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه ((لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا أنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة))، قال: أبو سعيد سمعته من رسول الله ﷺ) .[1]

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٦٠٩؛ باب رفع الصوت بالنداء.

المؤاخاة[1]

كان الرسول ﷺ حريصاً على إقامة روابط خاصة بين المسلمين يواسي بعضهم بعضاً، ويتفقد بعضهم بعضاً، ويعوض بعضهم بعضاً ما فقده من المال والأهل والأصحاب نتيجة إسلامه أو هجرته، ولذلك ورد أن المؤاخاة أول ما كانت في مكة قبل الهجرة بين عدد من المسلمين، منهم عمر وأبو بكر وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان، وأن علياً رضي الله عنه قال للنبي ﷺ حينها في مكة: يا رسول الله إنك آخيت بن أصحابك فمن أخي، قال: ((أنا أخوك)).[2]

---

(١) وضع البخاري في صحيحه، باب كيف آخى الرسول ﷺ بين أصحابه، ج٤/ ٢٦٧.

(٢) انظر: محمد أبو شهبة، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٢؛ البلاذري. أنساب الإشراف، ج١/ ٢٧٠. ولمزيد من التوسع راجع: د. أكرم العُمري السيرة النبوية الصحيحة، ج١/ ٢٤٠.

ولما استقر المسلمون في المدينة بُعيد الهجرة عقد ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوة، وقد سمى الرواة كل صحابي ومن آخى رسول الله ﷺ معه، وكانت المؤاخاة في الغالب بين أنصاري ومهاجر.[1] ووجدت حالات من المؤاخاة بين بعض المهاجرين ومهاجرين آخرين ولعلها جاءت في مراحل متأخرة أو لظروف خاصة وإلا فالراجح أنها كانت بين مهاجر وأنصاري. وقد ذكر ابن سعد «أن رسول الله ﷺ قد آخى بين خمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار»،[2] وهذه على ما يبدو دفعة من المؤاخاة لحقها دفعات أخرى حسب وصول المهاجرين.

وكانت هذه الأخوة للارتفاق والمساعدة والتفقد والتعليم، والتعاون على الخير، ولعل تلك المؤاخاة هي ما أشارت إليه الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ [الأنفال].

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه باب: (كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه).[3]

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٥٠٥.

(٢) ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٣٩.

(٣) كتاب مناقب الأنصار، أحاديث: ٣٨٣٧ ـ ٣٨٣٩، ج٤/ ٢٦.

وقد كانت هذه المؤاخاة في أول أمرها يدخل فيها التوارث، حيث يمكن أن يرث بعضهم بعضاً. وقد نُسخ التوارث بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال]. [١]

وقد طابت نفوس الأنصار بعون إخوانهم المهاجرين، وكان كثير من الأنصار يرغب أن يقسم أملاكه مع أخيه المهاجر، وخصوصاً الأصول كالنخيل والبيوت وغيرها، إلا أن المهاجرين مع كرم الأنصار كانوا ذوي عزة، فقد قال كثير من الأنصار (نكفيكم المؤونة وتشركونا في الثمرة)، [٢] وهذا يعني أن يعملوا معهم في المزارع مقابل جزء من الإنتاج.

وقد استمرت هذه المؤاخاة طيلة عهد رسول الله ﷺ فكان كل من الصحابة يشعر نحو من آخى الرسول ﷺ معه بشعور خاصٍّ، فكان بعضهم ربما أوصى بشيء من ماله للآخر في حياته وعند وفاته، إذ أن التوارث نُسخ، [٣] كما كان بعضهم بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الفتوح وانسياحهم في الأرض يتراسلون

---

(١) انظر: ابن كثير، تفسيره، ج/ ٨٥٧، ٨٥٨.

(٢) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٣٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٢٨.

(٣) انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، ج١/ ٢٣٨.

ويتفقد بعضهم بعضاً ما بين فارس والشام وغيرها استمراراً لهذه المؤاخاة[1] التي جعل رسول الله ﷺ أساسها العقيدة ومواساة الأخ المسلم لأخيه المسلم المخصوص.

(١) انظر: رسالة أبي الدرداء إلى سلمان الفارسي والعكس عند الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١/٥٤٨ ـ ٥٤٩.

بناء الرسول ﷺ بعائشة (رضي الله عنها)

كان اختيار زوجات النبيﷺ لرسوله من الله رحمة به وبالأمة، فكانت خديجة (رضي الله عنها) أكبر منه سناً، في وقت كان بحاجة لذلك، حتى إذا نزل الوحي عليه كانت خير معين ومساند، آمنت به وواسته وأعانته، وأشارت عليه بأحكم الآراء وأكثرها عوناً للرسول ﷺ، ولا شك أن هذا من عناية الله برسوله ﷺ.

أما عائشة (رضي الله عنها) فكانت المرأة الوحيدة البكر من نسائه، وكانت أصغرهن سناً وأكثرهن حفظاً، هيأها الله لنبيه وأمرها وغيرها من أمهات المؤمنين بأمر عظيم، وهو حفظ الشريعة من نبيه وتبليغها للأمة ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب].

وقد رأى النبي ﷺ في منامه عائشة مرتين (رضي الله عنها)، ويقال هذه امرأتك، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت

قال لها النبي ﷺ: ((أُريتُكِ في المنام مرتين، أرى أنك في سُرقة من حرير ويقال هذه امرأتك، فأكشف عنها فإذا هي أنت فأقول: إن يَكُ هذا من عند الله يُمْضِه)).(١)

وكانت خطبة عائشة (رضي الله عنها) بعد وفاة خديجة بفترة قصيرة، وقبل الهجرة بسنتين تقريباً. روى البخاري: (توفيت خديجة قبل مخرج النبي ﷺ بثلاث سنين أو قريباً من ذلك ونكح عائشة وهي بنت ست سنين، ثم بنى بها وهي بنت تسع سنين).(٢) وهذا يعني أن الخطبة والعقد وعمرها ست سنين والدخول بها وعمرها تسع سنين

وكان عقد رسول الله ﷺ في شوال من السنة العاشرة للبعثة، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة الأولى للهجرة،(٣) وقيل بعد ذلك.(٤)

ولصغر عائشة (رضي الله عنها) دور في تكيفها مع طبائع النبي ﷺ وتربيته لها في جوانب كثيرة، حتى أنه في مرضه الذي مات فيه رغب أن تمرضه عائشة، وأن يبقى عندها حتى توفي ﷺ ورأسه في حجرها (رضي الله عنها).(٥)

---

(١) البخاري، صحيحه، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها، حديث رقم: ٣٨٩٥، ج٤/ ٢٥٢.

(٢) البخاري، صحيحه، حديث رقم: ٣٨٩٦، ج٤/ ٢٥٢.

(٣) الطبري، تاريخه، ج١/ ٣٤٠.

(٤) انظر: وفاة الرسول ﷺ، من هذا الكتاب.

(٥) انظر: وفاة الرسول ﷺ وترجمة عائشة من هذا الكتاب.

كانت تحفظ وتعي العلم عنه ﷺ أكثر من غيرها (رضي الله عنها)، وامتد بها العمر حتى علَّمت أجيالاً كثيرة من الأمة، رجالاً ونساءً، سنة رسول الله ﷺ.

وكانت أحب نسائه إليه، ولم ترزق بولد، سميت أم عبدالله بابن أختها عبد الله بن الزبير (رضي الله عنها) وكونها بنت الصديق (رضي الله عنها) أعطاها فرصة للأخذ من رسول الله ﷺ ومن أبيها (رضي الله عنها) في وقت واحد، كما أعطى فرصة لالتقاء أبي بكر برسول الله ﷺ في بيتها عندها وفي السفر.

حدثت لها حوادث عدة أعطت دروساً للأمة وأبانت فضلها (رضي الله عنها)، ومن ذلك حادثة الإفك، ونزول آية التيمم[١] وغير ذلك من الأحداث.

وقد وضع البخاري في صحيحه باباً سماه: (باب تزويج النبيﷺ عائشة وقدومه المدينة وبنائه بها) روى فيه عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: تزوجني النبيﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج، فوعكت فتمزق شعري فَوقى جُميمة، فأتتني أمي أم رومان، وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي فصرخت بي فأتيتها لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ج١/ ٤٨٩؛ ورواية البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب وإن كنتم على سفر، ج٥/ ١٨٠.

حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت، فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يَرُعْني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين).[١]

وقصة خطبة عائشة (رضي الله عنها) قبل الهجرة وردت فيها روايات عدة، منها أنها كانت مخطوبة لأحد أبناء المطعم بن عدي،[٢] وأن أمه عاتبة على أبي بكر تبعيته للرسول ﷺ، وأظهرت كرهها لزواج ابنها من عائشة مخافة أن يُسلم ابنها، ما جعل الصديق في حل من تلك الخطبة.[٣]

ومع الأسف فإن بعض المستشرقين ومن يأخذون منهم ينتقدون زواجه ﷺ بها مع صغر سنها.

ومَن هؤلاء؟!! حتى يقيسوا عمل الرسول ﷺ ويرون صوابه من عدمه؟ علماً أن زواجه ﷺ بأمر الله ولو كان غير ذلك لأتي ما يوجهه من الله فهو القدوة ﷺ. كما أن المجتمعات البشرية جميعها دونما استثناء في تلك الفترة، ولا زال بعضها على ذلك ـ إلى اليوم ـ، تزوج الصغار المماثلات لسنها (رضي الله عنها).

---

(١) البخاري، صحيحه، حديث رقم: ٣٨٩٤، ج٤/ ٢٥١.

(٢) انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ١٤٩.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢/ ١٤٩.

وهذا الأمر يحدث في هذا الزمن في عدد من الدول في العالم، وإن كان ينبغي أن لا يقاس عليه لاختلاف الظروف والعادات.

كما أن الغرب وغيره يعرف طبياً أن المرأة في سن التاسعة والعاشرة تعتبر في كثير من الأحيان ناضجة جسدياً ونفسياً للزواج الصحيح. (وحالياً توجد حالات كثيرة للحمل غير الشرعي بأعداد كبيرة في الغرب لمن هم في هذا السن وأصغر منه أحياناً)، وعلى كل فالهجوم في الغالب منطلقه هوى وعداء للرسول ﷺ ومحاولة انتقاصه ﷺ، وأخطاء الآخرين لا ينبغي أن تحمل هذه الحادثة، مع أن استغلال النساء سواء كن قُصَّراً أو كباراً لا يجوز للأغراض المادية، كما هو حادث في معظم حالات الزواج من القُصَّر في العصر الحاضر، والتي يخطأ فيها الكثيرون ممن هم بعيدون عن السنة أصلاً ويحاولون تبرير أعمالهم وظلمهم للفتيات.

ومن المعروف أن عائشة، بل وآل أبي بكر الصديق رضي الله عنهم تشرفوا بهذا النسب كما أنها (رضي الله عنها) ((زوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة كما ورد في الحديث الشريف)).[1]

---

(١) انظر: تفصيلات كثيرة عن الحديث وغيره عند الذهبي في سير أعلام النبلاء، ج١/ ١٣٥، في ترجمته لعائشة.

تنمية المدينة ومجتمعها

جاء الإسلام إلى المجتمعات البشرية ليحببها بطاعة الله وتوحيده أولاً، وليرفع من مستوى كرامتها، وليعزز النظام، وليرفع الإنتاج، ويحمي البيئة والأرض من الفساد، ويعمرها بما يصلح للإنسانية، وكانت المدينة نموذجاً لهذا الأمر، حيث نظمها ﷺ بالتشريعات المختلفة، والوصايا والأعمال التنظيمية والتنفيذية المدنية، التي جعلت الجميع يتسابقون للإنتاج والعطاء، بدلاً من الكسل والاعتماد على الآخرين أو التشاؤم والسلبية. وسواء كانت تلك الأمور عامة في الإسلام أم خاصة بالمدينة إلا أن أثرها بدا واضحاً على المدينة المنورة التي نمت وتغيرت حالها بعد الهجرة النبوية المباركة.

وتكمن البداية في أشياء معنوية في الظاهر لها أهمية كبرى، فأولها:

تغيير اسم المدينة

كانت المدينة تعرف عند العرب قبل الإسلام بـ(يثرب)، ومعناه شيء من التثريب أو اللوم، وقد ورد الاسم في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقد كره الرسول ﷺ هذا الاسم وأمر بتغييره إلى المدينة،[١] ومعروف أن الاسم يعني التمدن والحضارة والاستقرار وما يتبعه من علم وعمل ونظام وعدل وغير ذلك مما يرتبط بالمدنية. وقد سماها الرسول ﷺ بأسماء أخرى مثل طابة وطيبة والمباركة والمشرفة، ودار الإيمان، والحصينة، وكلها أسماء تدعو إلى التفاؤل والنظرة الحسنة وجمال الاسم.[٢]

محبة المدينة وتحريمها

لقد حرص الرسول ﷺ على جعل حرمة للمدينة، وحدد لها حدوداً ودعا لها ﷺ، كما ورد عند البخاري في صحيحه أنه ﷺ قال: ((إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها وإني حرمت

---

(١) راجع الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص٣٠١.

(٢) صالح الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص٣٠٥.

المدينة ما بين لابتيها)).[1] كما دعا ﷺ: ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد))،[2] ولا شك أن محبة المكان داع للحفاظ عليه ورعايته ودوام الإقامة فيه.

كما كان من التشريعات التي أصدرها النبي ﷺ لحفظ البيئة والحياة الطبيعية في المدينة قوله ﷺ: ((إن إبراهيم حرم مكة وإني أُحرم المدينة حرام ما بين حَرَّتَيْها وحماها كله لا يختلى خلاها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها، ولا تقطع منها شجرة إلا أن يُعلف رجل بعيره ولا يحمل فيها السلاح لقتال)).[3]

كما ورد: «عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((المدينة حرم من كذا لا يقطع شجرها ولا يحدث فيها حدث، من أحدث فيها حدثاً فعلية لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)).[4]

كما قال ﷺ: ((حُرمٍّ ما بين لابتي المدينة على لساني)) قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة فقال: ((أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم ثم التفت فقال بل أنتم فيه)).[5]

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب أُحُد جبل يحبنا ونحبه، ج٤/ ٤٠.

(٢) من حديث رواه البخاري في صحيحه، رقم: ٣٩٢٦؛ ومسلم في صحيحه رقم:١٣٧٦؛ وانظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص١٧٦.

(٣) من رواية الإمام أحمد في مسنده، ج١/ ١١٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، ج٢/ ٢٢٠.

(٥) رواه البخاري، باب حرم المدينة، ج٢/ ٢٢١.

لقد جعلت هذه الأوامر النبوية المدينة المنورة ذات حماية خاصة ما يتعلق بالبيئة والحمى وقطع الأشجار والصيد، وقد ساهمت تلك التشريعات والأوامر النبوية على حماية البيئة الطبيعية للمدينة، في ضوء الزيادة السكانية للمدينة المنورة نتيجة الهجرة المتزايدة إليها، وخصوصاً في السنتين الأوليين من الهجرة النبوية.

وقد أثنى الرسول ﷺ على أهل المدينة والمقيمين بها والآوين إليها والمهاجرين، كما قال ﷺ: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها).(١)

وقد وضع مسلم باباً سماه الترغيب في سكن المدينة، ولعل أشهرها ما تداوله الناس باختصار من حديث طويل: ((والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)).(٢)

عن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((تفتح اليمن، فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم،

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وانظر تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص٣٢.

(٢) من رواية البخاري، حديث رقم: ١٨٧٥؛ ومسلم، حديث رقم: ١٣٨٧؛ والإمام مالك، في الموطأ ج٢/٨٨٨؛ وغيرهم. انظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضل المدينة، ص١٩٠.

والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)).[١]

وقد وردت أحاديث كثيرة في الدعاء للمدينة بالبركة، من ذلك ما رواه البخاري ومسلم: ((إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مُدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام))،[٢] كما قال ﷺ: ((اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا، وصححها لنا وانقل حماها إلى الجحفة)).[٣]

وفي حديث آخر، حيث روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤا إلى النبي ﷺ فأخذه رسول الله ﷺ قال: (اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك

---

(١) رواه البخاري، حديث رقم: ١٨٧٥؛ ومسلم، حديث رقم: ١٣٨٧؛ والإمام مالك، في الموطأ ج٢/٨٨٨؛ وغيرهم. انظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضل المدينة، ص١٩٠.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، وانظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة فيه، ص٢١٥.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، ج٢/ ٢٢٥، انظر: تخريجه عند الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة، جمعاً ودراسة، ص٢١٥.

للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه)). قال: ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر.[1]

التنمية السكانية

كان ﷺ حريصاً على زيادة السكان في المدينة والتوالد بين المؤمنين، ولذلك فقد فرح ﷺ وفرح المسلمون معه بأول مولود للمهاجرين بعد الهجرة النبوية، فقد روى البخاري عن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنها)، قالت حملت بعبد الله بن الزبير فخرجت وأنا متم [أتمّت حَمْلها ودنت ولادتها] فأتيت المدينة، فنزلت بقباء فولدته بقباء، ثم أتيت به النبي ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد في الإسلام.[2] وقد جاءت الآيات القرآنية تأمر بالمحافظة على الولد والتأكيد على رزق الله لهم مع أبائهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء].

كما جاءت الأوامر النبوية، على اختلافها، تؤكد على أهمية

---

(١) رواه مسلم، حديث رقم ١٣٧٣؛ والترمذي، ج٥/٥٠٦؛ الرفاعي، الأحاديث الواردة في فضائل المدينة جمعاً ودراسة، ص٢١٦.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم: ٣٩٠٩؛ كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وانظر: ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٢.

تكاثر المسلمين مع حسن تربيتهم وإعدادهم ومن ذلك قوله ﷺ: ((تزوجوا الودود والولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)).[١]

وأول إحصاء سكاني عرف في الإسلام كان في عهد الرسول ﷺ، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال: ((اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، يقول حذيفة بن اليمان فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجل)).[٢] كان هذا اهتماماً مباشراً لمعرفة الطاقات البشرية وكان ﷺ يوجه كل فرد لما يصلح له.

ومن المعروف حث الرسول ﷺ على الهجرة إلى المدينة، ومع ذلك فقد كان حريصاً على ضبط الأمور وأن لا تخرج عن الحدود وتربك المدينة وتنظيمها، وتوقع الخلل في تركيبتها السكانية، ولذلك حينما أسلمت بعض القبائل وأرادت الهجرة بكاملها إلى المدينة أمرهم الرسول ﷺ أن يلزموا ديارهم، ويتعلم بعضهم من بعض، ويكونوا مستعدين لأوامره.[٣]

كما أوقفت الهجرة بعد فتح مكة،[٤] ما يعني الإبقاء على توازن سكاني في المدينة وفي غيرها.[٥]

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٣/ ٢٤٥.
(٢) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص٢٣٠.
(٣) انظر: عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٨.
(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص ٣٤٧؛ عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/ ٤٨٣.
(٥) انظر: صحيح البخاري، رقم: ٣٤٠٥، ٣٤٠٦، ٣٤٠٧، باب ٥٤، يلي باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح.

ليس هذا فحسب بل إن التوزيع السكاني داخل المدينة كان مهماً، ولذلك لما بنى الرسول ﷺ مسجده النبوي، وعلم الأنصار بفضله والصلاة فيه أراد بنو سلمة أن يتركوا منازلهم في أطراف المدينة ويقتربوا بمساكنهم من المسجد النبوي فلم يحبِّذ الرسول ﷺ ذلك منهم،كما في رواية أنس: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول الله ﷺ أن تُعرى المدينة، وقال: ((يا بني سلمة ألا تحتسبون آثاركم، فأقاموا)).[١]

التنمية المعنوية

إن زيادة عدد السكان من دون الاهتمام بالنوعية والتميز لا قيمة له، ولذلك فإن رسول الله ﷺ كان حريصاً على كل فرد مسلم أن يحس بتميزه ومكانته دون تكبر، مقروناً ذلك بالخشوع لله والخضوع له واللين مع المسلمين والرحمة للعالمين، وذلك يلزم تغذية الروح المعنوية وتقويتها لدى جميع الأفراد، وبناء الثقة في نفس الإنسان منذ أيامه الأولى في الحياة، وتقوية حاله النفسية، ابتداءً باسمه الذي ينادى به، حيث حرص الرسول ﷺ على التسمية بأفضل الأسماء،[٢] بل وتغيير الأسماء القبيحة إلى حسنة والكنى السيئة إلى طيبة، ولذلك فإنه شارك في تسمية عدد

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، حديث رقم: ١٨٨٧.

(٢) انظر: د. عدنان الوزان، موسوعة حقوق الإنسان في الإسلام، ج٥/ ٣٥.

من المواليد في أيامه ﷺ من أمثال عبدالله بن الزبير،[1] والحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه،[2] وغيرهم من المواليد في المدينة بعد الهجرة.

كما غير أسماء بعض المهاجرين، فقد كان رجل يدعى جُعيل فسماه عمرو،[3] كما كان ﷺ يعطي الشباب وعامة الناس دفعات معنوية من خلال مناداتهم بأحب الأسماء والألقاب والكُنى إليهم، فينادي الصغير يا بُني ويناديهم بكناهم، فينادي أخاً لأنس بن مالك صغير فيقول: يا أبا عمير، هذا كله في آحاد الناس وأفرادهم. أما عموم أمة محمد ﷺ فإن الله سبحانه وتعالى قال عنها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فهل بعد هذا النداء من ذلة أو قعود؟ إنه رفع لشأن أمة محمد ﷺ من بين سائر الأمم فرداً فرداً وجماعة. كما علم الأمة كلها المحبة بعضهم لبعض وللعالم كله والرحمة بكل ذي كبد رطبة وكل كائن حي.

التنمية العلمية

جاء الإسلام منذ نزول القرآن وأول آياته على الرسول ﷺ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المغازي، ص١٥٣؛ وانظر: رواية البخاري في فتح الباري، ج١٥/ ١٠٤.

(٢) انظر: تفصيلات عنهما في موضوع «المعايشون للرسول ﷺ».

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٤/ ٢٤٥؛ ترجمة جُعال بن سراقة الضمري.

الأمي ليذكر بالعلم والقلم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].[1]

في وقت كان العرب يسودهم الجهل والأمية والخرافات والأساطير، مع وجود نزر بسيط من التعليم في المراكز الحضرية، ولا يمكن مقارنتها مع غيرها من البلدان والشعوب المجاورة، بل وحتى مع المجتمعات اليهودية والنصرانية في بلاد العرب.

وقد هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة وهو يحث على العلم والتعليم،[2] والتعلم ويرفع من مكانته في نفوس المسلمين. ولا شك إن لذلك الأمر تأثيره على مجتمع المدينة في تنميته من الناحية العلمية، فكانت مجالسه مجالس علم.

وقد كان الصحابة يقرأون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة].

فيدركون أسباب الرقي والرفعة في الدنيا والآخرة وكان الرسول ﷺ المعلم الأول في المدينة يعلم الناس القرآن

---

(١) لمزيد من التوسع راجع كتاب، الحربي، محمد بن أحمد، إقرأ باسم ربك، ط١، نادي جازان الأدبي ١٤٢٢هـ..

(٢) لمزيد من التوسع راجع كتاب، الوكيل؛ محمد السيد، الحركة العلمية في عصر الرسول وخلفائه الراشدون، ط١، دار المجتمع، جده ١٤٠٦هـ.

وأمور الدين التي هي نظام عام وقانون وشريعة للحياة.

وقد وضع البخاري في صحيحه كتاباً سماه كتاب العلم،[1] أورد فيه ثلاثة وخمسين باباً، في أحاديث عديدة وشرح آيات مختلفة مثل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

وقد قال الرسول ﷺ: ((لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)).[2]

وكان الرسول ﷺ يأمر المتعلم بتعليم الآخرين، فقد حثّ النبي ﷺ وفد عبد القيس على تعليم قومهم، فقال لهم: ((ارجعوا إلى أهلكم فعلموهم)).[3]

---

(١) انظر: صحيح البخاري، الكتاب الثالث، كتاب العلم، وفيه (٥٣) باباً من الحديث رقم: ٥٩ إلى الحديث رقم: ١٣٤.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم: ٧٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٨٧.

عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)).[١]

والكتابة في المدينة كانت تتركز بالدرجة الأولى لدى اليهود، الذين كانوا يعرفون الكتابة والقراءة ويعلِّمونها أبناءهم فيما يعرف بالمدارس،[٢] وكان تركيزهم على الحروف العبرية يكتبون بها اللغة العربية. وقد تعلم على يهود بعض الأوس والخزرج، ومنهم سعد بن عبادة وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي الله عنهم وغيرهم ممن عرف من كُتاب النبي ﷺ من الأنصار.[٣] وقد عرف المسلمون قيمة الكتابة قبل الهجرة، حيث نجد أن فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد في مكة كانا يقرآن سورة طه من صحيفة بين أيديهم مع خباب بن

(١) صحيح البخاري، حديث رقم: ٧٩.
(٢) راجع محمد العيد الخطراوي، المدينة في العصر الجاهلي، ص٩٩.
(٣) انظر: مصطفى الأعظمي، كُتاب النبي ﷺ؛ المكتب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٤٠١هـ.

الأرت، وذلك حين دخل عليهم عمر بن الخطاب واكتشف إسلامهم.[1]

وقد كان تعلم القراءة والكتابة من أهداف كثير من الصحابة في المدينة بعد الهجرة. وقد كان عبادة بن الصامت يُعلم أصحاب الصِّفّة القراءة والكتابة.[2]

وبعد نهاية غزوة بدر كان هناك مجموعة من الأسرى من مشركي قريش ممن يحسنون الكتابة والقراءة لا مال لديهم لفداء أنفسهم من الأسر، فقبل الرسول ﷺ أن يعلم الواحد منهم عشرة من غلمان المدينة الكتابة والقراءة، مقابل أن يطلق سراحه،[3] فتعلم يومئذ الكتابة والقراءة جماعة من غلمان الأنصار. وكان هذا الأمر سبباً في كثرة القراءة والكتابة في مجتمع المدينة، ولا شك أن هؤلاء المتعلمين ساهموا بعد ذلك في تعليم غيرهم.

ولعل الحرص بعد ذلك على كتابة القرآن والسنة التي بدأت في أيام الرسول ﷺ تُعد من أهم أسباب إتقان أهل المدينة للكتابة، وكذلك الحال في كُتَّاب النبي ﷺ، الذين ساهموا في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١/ ٣٤٥؛
وانظر: إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه من هذا الكتاب.

(٢) د. أكرم العُمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، القسم الأول، ص٩٦.

(٣) انظر: غزوة بدر من هذا الكتاب.

كتابة رسائله إلى أمرائه والى ملوك العالم والذين وصل عددهم بعد ذلك إلى قرابة ستين كاتباً.[1]

ولعل أهمية حقوق الآخرين وضرورة توثيقها تعد دافعاً رئيساً للكتابة. وهذا ما أشارت إليه أطول آية في القرآن الكريم التي عرفت بآية الدين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة].

---

(١) انظر: كُتّاب النبي ﷺ، مصطفى ألأعظمي، ص١٧٩؛ وانظر: محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، وأحمد عبد الرحمن عيسى، كتاب الوحي، دار اللواء، ط١، الرياض، ١٤٠٠هـ، وجمال الدين أبي عبد الله محمد بن أبي حديدة، المصباح المضيء في كتاب النبي ﷺ.

ولفظ كتب ومشتقاتها وما يرتبط بها وردت في الآية (٩) مرات وهذا دليل واضح على الأهمية.

وعُرف أن بعض النساء كنّ يُجدن الكتابة ويعلِّمنها بعض النساء في عصر الرسول ﷺ، ولعل ذلك كان بتشجيع من النبي ﷺ، ولا شك أنه بإقرار منه، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال للشفاء بنت عبد الله وهي من بني عدي بن كعب من قريش أسلمت وهاجرت إلى المدينة ((ألا تعلمين حفصة رُقْيَة النملة كما علمتها الكتابة)).[(١)]

وإذا كانت الشفاء قد علَّمت أم المؤمنين حفصة الكتابة فإنه لا يستبعد أنها عَلَّمت غيرها من النساء، كما أنه وجد غيرها من معلمات النساء القراءة والكتابة في المدينة في العصر النبوي.[(٢)] ونحن نعلم أن الحث على العلم والتعلم الوارد في السنة النبوية وقبله في القرآن الكريم ليس خاصاً بالرجال دون النساء، بل عامّاً للأمة بأجناسها وأعمارها وفئاتها كافة.

ولعل تصور عدد الكُتّاب في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ وارتفاع عددهم بعد الهجرة بحوالى أربع سنوات، يعطينا انطباعاً عن مدى انتشار الكتابة في المدينة بعد الهجرة، وبتأثير مباشر من الرسول ﷺ وأحكام الشريعة وتطبيقها، حيث من المتوقع أن

---

(١) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٢٤.

(٢) انظر: عبد العزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، القراءة والكتابة، ص٣٥.

العدد تضاعف ثلاث أو أربع مرات. ولاشك أن القراءة والقلم الأداة الأولى للعلم هي ما أشير إليه في أول آيات نزلت على المصطفى ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق].

مع التأكيد ـ في الوقت نفسه ـ على حال النبي ﷺ وأن أميته معجزة في حقه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت].

التنمية الاجتماعية

كان مجتمع المدينة قبل الإسلام وهجرة النبي ﷺ كأي مجتمع عربي جاهلي تسوده أعراف جاهلية وعادات قبلية، فيها الكثير من الجهل وبعض من تلك العادات كان مستحسناً.

وأينما حل الرسول ﷺ، وهو المبعوث رحمة للعالمين، حلت معه الأخلاق العالية والصفات الحميدة التي جاء بها، وأراد الله نشرها بين الناس، وبالتالي بدأت تمتد يد التغيير الاجتماعي في مجتمع المدينة.

ولعل من أهم القضايا المساهمة في التلاحم الاجتماعي وتحديد المسؤولية(١)، ونشر الصدقة والزكاة ومواساة

---

(١) حركات: إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر النبوي، دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ص٢٣٧.

المحتاجين من الفقراء، حيث عم التكافل الاجتماعي، سواء ما حصل بين المهاجرين والأنصار، أم ما حصل للمحتاجين من عامة المسلمين، بل والصدقة والإحسان على غير المسلمين، إضافة إلى التوجيهات النبوية بالعفة والاستغناء عن الآخرين ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾﴾ [المعارج].

وكانت هناك مصادر للدخل تؤدي لفساد أخلاقي واجتماعي حاربها الرسول ﷺ، من ذلك أعمال فاسدة تتعلق بالجواري ذوات الرايات اللاتي نزل فيهن: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾﴾ [النور].

وأما الزنا فقد جاء الإسلام حاسماً في تحريمه وتشديد العقوبة عليه، وهو من أهم أبواب الفساد الاجتماعي، وضياع الأنساب واختلاط النُّطف وتفشي الأمراض الجنسية، وضياع المسؤوليات وقطيعة الأرحام، وجاء التشديد في ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ [المؤمنون].

كما جعل للأزواج حقوقاً محددة، وأمر بالاحترام وحسن العلاقة بينهما والمودة والرحمة والإحسان المتبادل، وطبق ﷺ ذلك في تعامله مع زوجاته فكان مثالاً حياً في هذا الجانب.[1]

---

(١) الكمداني: أديب، فن تعامل النبي في الحياة الزوجية، ط١، دار البشائر الإسلامية، دمشق ١٤٢٥هـ، ص١٧.

وجاء تحريم الزنا ليوقف أضراراً اجتماعية، وفساداً أسرياً وانحلالاً للأواصر الاجتماعية يحدثها الزنا، كما أن في منعه منعاً لانتشار الأمراض الجنسية التي تصيب ممارسيه وتنتقل من زان لآخر ومن زانية لأخرى، ولعل انتشار الإيدز وغيره من الأمراض الجنسية في هذه الأيام يذكر بأهمية تحريم الزنا وفائدة هذا التحريم على الإنسانية جمعاء.

كما كانت الخمور تشكل عبئاً كبيراً على المجتمع، وتعد من مصادر الفخر لدى العرب، مع أنها تجلب مختلف المشاكل، فجاء الإسلام ليحرمهما تدرّجاً حتى أصبحت من الكبائر،(١) فتغير سلوك كثير من الناس بتحريمها.

وقد جاء الإسلام لزيادة الروابط الاجتماعية فجعل صلة الرحم من أعظم القربات إلى الله تعالى وتفقد ذوي الأرحام والإحسان إليهم والنفقة عليهم من أبواب الثواب العظيمة مقرونة بالتوحيد والعدل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١﴾ [النحل].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأشربة: (باب إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان)، وانظر: الأحاديث من رقم ٥٥٧٥ حتى ٥٦٠٢.

كما جعل بر الوالدين واجباً شرعياً مقروناً بطاعة الله تعالى والتقرب إليه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)﴾ [الإسراء].

وجعل حسن العلاقة بالجار واجباً شرعياً ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)﴾ [النساء].

وجعل التعاون على البر والتقوى سمة اجتماعية عامة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢)﴾ [المائدة].

كل هذا عمل على زيادة التلاحم الاجتماعي وإصلاح المجتمع في المدينة بعد الهجرة، والرقي به وتفقد بعضه بعضاً وعفو البعض عن الآخرين.[1] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ

(١) كُتبت مؤلفات عدة حول التغير الاجتماعي من خلال السيرة النبوية من ذلك كتاب حنان اللحام، هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي. دار الفكر، بيروت، ودمشق، ط٢، ١٤٢٣هـ.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [الشورى].

ناهيك عن الوصايا العامة في الأخلاق وحسن التعامل والإعراض عن الجاهلين: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣﴾ [الفرقان].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفرقان].

كما أمر بالدفع بالحسنى عند الضرورة ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت].

وجعل الأخلاق العالية هدفاً سامياً للفرد والمجتمع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحجرات].

وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، ولم يفرق بينهم، وأعلن القرآن أن أصل البشرية واحد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات].

وحرم التكبر والاستعلاء على الآخرين: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان].

وجعل صلاح المجتمعات والأرض عموماً هدفاً عاماً للمسلم ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

وجعل التواصي بالحق والصبر عليه أمراً إنسانياً واجباً: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر].

هذه القيم الاجتماعية حلت في مدينة الرسول ﷺ مع الرسول بعد الهجرة، وأحدثت تنمية اجتماعية لم يعرف تاريخ الإنسانية لها مثيلاً، ولم يتوقف أثرها في المدينة وحدها وفي عصره ﷺ، بل إن المدينة كانت مدينة طَيْبَة كما سماها الرسول ﷺ امتد أثرها إلى العالم قاطبة بهذه المعاني التي نقلها الصحابة وأتباعهم جيلاً بعد جيل، فأنارت العالم فكانت المدينة كالشجرة الطيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم].

كما أن العبادات الإسلامية كلها دافع للسلوك والقيم ناهية عن الفحشاء والمنكر ومنها الصلاة ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

التنمية الصحية

كانت المدينة قبل وصول الرسول ﷺ تعاني عدداً من المشاكل الصحية لدى السكان، منها ما يرتبط بالبيئة، وخصوصاً الحمى المنتشرة بين أهلها بسبب المزارع وما يرتبط بها من مستنقعات، فدعا لها رسول الله ﷺ: ((اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا وَصَحِّحْهَا لَنَا وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ)).(١) ومن الواضح من الدعاء اهتمام الرسول ﷺ بصحة المدينة وأهلها.

كما أن الرسول ﷺ مرض كغيره من البشر،(٢) وشجع الناس على التداوي،(٣) والبحث عن العلاج في قوله: ((ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء)).(٤)

وداوم على التطبب. وكان يؤكد على العلاج الطبيعي كالعسل وغيره فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: ((الشفاء في ثلاثة:

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل المدينة، ج٢/ ٢٢٥.

(٢) انظر: مؤنس، حسين، التاريخ الصحي للرسول ﷺ سلسلة اقرأ، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠م.

(٣) انظر: الفيروزآبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب، تحقيق أحمد عبد الرحيم السايح وعمر حمزة، من هدي النبي المسمى «سفر السعادة»، مركز الكتاب، ط١، ١٤١٧هـ. ص٢٢٨.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ج٢١/ ٢٥٠.

شربةُ عسل وشَرْطةُ مِحجَم وكيَّةُ نار، وأنهى أمتي عن الكي)).[1]

كما وقف ﷺ موقفاً حازماً من الخرافات التي تسبب الأمراض النفسية والجسدية من الطِّيَرَة والتشاؤم، وأثبت للناس الفأل الحسن، وكان يأمر باستعمال بعض النباتات كالحبة السوداء وغيرها.[2]

أما في مجال الطب الوقائي فقد وضع ﷺ أساسه في قوله: ((إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)).[3]

كما أنه وضع قواعد مهمَّة في الصحة والطب الوقائي والعلاجي، من خلال الحمية وعدم الإسراف في الأكل وصيام الفريضة والتطوع، ومن ذلك قوله: ((ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لُقيماتٍ يُقِمْن صُلْبَه، فإن كان لا بد فاعلاً فثلثٌ لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)).[4]

وكان ﷺ يُقرُ دعوة الأطباء للمرضى، كما حصل لسعد بن أبي وقاص حين مرض في حجة الوداع.[5]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ج٧/ ٢٠، وانظر شرحه عند ابن حجر، فتح الباري، ج٢١/ ٣٤٢.
(٢) انظر: ابن القيم، الطب النبوي، ص ٢٢٩.
(٣) صحيح البخاري، فتح الباري، ج٢١/ ٣٠٣.
(٤) ابن القيم، زاد المعاد، ج٣/ ٦٨.
(٥) انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣/ ١٤٧؛ والبخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حجة الوداع، حديث رقم: ٤٤٠٩.

وقد حارب ﷺ الشعوذة وإتيان الكهان للعلاج، وأقرّ الرقية الصحيحة من القرآن والدعاء ﷺ.

وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ (رضي الله عنها) في غزوة أُحُد تعالج جروح النبيﷺ بالرماد حتى انقطع الدم.

وفي أيامه ﷺ أقيم أول مستشفى في الإسلام، حيث أقامت رُفيدة الأسلمية (رضي الله عنها) في غزوة الخندق خيمة في مسجد رسول اللهﷺ تداوي فيها الجرحى،[١] وقد وضع فيها رسول اللهﷺ سعد بن معاذ بعد جرحه في غزوة الخندق، فقال: ((اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب)).[٢] كما ساهمت أوامر الرسول ﷺ بالنظافة والحرص على الاغتسال في الحد من الأمراض وانتشارها.

وكان لوصاياه ﷺ في نظافة الأكل وطرق حفظه وتغطيته دور في المحافظة على الصحة العامة للإنسان.

وحث الرسول ﷺ على الختان وبعض الأعمال الجسدية التي تساهم في الحد من الأمراض والجراثيم في قوله: ((خَمْسٌ من الفطرة؛ الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب)).[٣]

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٣٨؛ وابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣٠٣؛ الطبري، تاريخه، ج٣/ ٦٧٣.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٢٣٨.
(٣) صحيح مسلم، ج١/ ١٥٢.

وقد أُلفت كتب متعددة في الطب النبوي كلها مبنية على ما ورد عن الرسول ﷺ في سنته،[١] كما عقدت مؤتمرات علمية معاصرة عديدة عن الطب النبوي، تؤكد التوجه المعاصر للطب البديل.

وقد أثرت تلك التعليمات عموماً في المدينة المنورة، وتأثر بها أهلها وطبقوها في حياتهم العامة والخاصة، وإن كانت موجهة لعامة الأمة، إلا أن مجتمع المدينة في أيام الرسول ﷺ تأثر بها وأحدثت فيه نقلة قبل غيره وساهمت في تطويره صحياً ذلك التطور الذي بدأ لحظة وصول الرسول ﷺ إلى المدينة، ولا يزال أثره إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

التنمية الاقتصادية

كان رسول الله ﷺ منتجاً منذ صباه، فقد رعى الغنم على قراريط لأهل مكة، لكي يكسب ويساعد عمه أبا طالب في إعاشة أولاده، وقد قال ﷺ: ((ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا كنت أرعاها على قراريط[٢] لأهل مكة)).[٣] وحين بلغ ﷺ مبلغ الرجال

---

(١) انظر: ابن القيم، الطب النبوي؛ الذهبي، الطب النبوي؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء؛ ابن أبي أصيبعة؛ طبقات الأطباء.

(٢) جمع قيراط، وهو الجزء من الدينار. ابن حجر، فتح الباري، ج١٠/ ٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، ج٣/ ٤٨، باب رعي الغنم على قيراط، حديث رقم: ٢٢٦٢.

استأجرته خديجة ليتاجر لها في مالها،[1] فكانت له رحلات متعددة لأجل التجارة.

ومن أقواله ﷺ في الحث على العمل والإنتاج ((ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)).[2]

وكان ﷺ يضرب الأمثلة للصحابة بالأنبياء العاملين الحرفيين المنتجين فقال: ((كان زكريا نجاراً)).[3]

وقد وردت عند المحدثين أبواب مختلفة مليئة بالأحاديث النبوية التي تحث على الكسب والإنتاج والعمل، منها عند البخاري (باب كسب الرجل من عمل يده).[4]

وعند ابن ماجة (باب في الحث على المكاسب)[5] وعند الدارمي (باب في الكسب وعمل الرجل بيده).[6]

وكان سلوك الرسول ﷺ مع أصحاب المهن والعاملين في المدينة مشجعاً لهم، فها هو يستجيب لدعوة خياط إلى

---

(١) انظر: زواج الرسول ﷺ من خديجة وترجمتها من هذا الكتاب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، باب كسب الرجل من عمل يده، حديث رقم: ٢٠٧٢.

(٣) سنن ابن ماجة، ج٢/ ٧٧٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، الأحاديث من رقم: ٢٠٧٠ إلى ٢٠٧٥.

(٥) سنن ابن ماجة، ج٢/ ٧٧١.

(٦) الدارمي، سننه، ج٢/ ٢٤٧.

طعام،[1] ويودع ابنه إبراهيم للرضاعة عند امرأة حداد).[2]

وكان لهذه التصرفات وغيرها دور في تغيير نظرة أهل المدينة وغيرهم من العرب الذين كانوا يحتقرون بعض المهن كالحدادة، وغيرها.[3]

وكان للآثار النبوية في هذا الجانب دورها في ما أَلَّفه العلماء المسلمون، حول الكسب والعمل والإنتاج عبر العصور.[4]

وقد ساهمت تشريعات الإسلام التي طبقها ﷺ في زيادة الإنتاج في المدينة، ونموها الاقتصادي في المجالات كافة ومنها:

تنمية التجارة

حينما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة كانت التجارة تتركز في يد يهود، لهم السيطرة على أسواقها، وخصوصاً سوق بني قينقاع[5] المعروف باسمهم، وهو أشهر أسواق المدينة، حين

---

(١) انظر: صحيح البخاري، ج٣/ ١٣.
(٢) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٩٨.
(٣) انظر: عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في العصر النبوي، (موقف الإسلام من الحرف والصناعات)، ص٤٣.
(٤) انظر: الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، على ما كان في عهد الرسول ﷺ من الحرف والصنايع والعمالات الشرعية؛ وأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلاف، ت: ٣١١هـ؛ الحث على التجارة والصناعة والعمل.
(٥) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج١/ ٣٠٤.

هاجر الرسول ﷺ إليها، وكان الرسول ﷺ حريصاً على أن لا يُغلب المسلمون على الأسواق واقتصاديات المدينة.

ومن المعروف أن المدينة المنوّرة بلد زراعي بالدرجة الأولى قبل الهجرة النبوية وبعد الهجرة، ولم يمنع ذلك من وجود من يشتغل في التجارة.

والتجارة قبل الهجرة النبوية كانت متركزة في أيدي يهود المدينة أكثر من غيرهم ولذلك سمي بـ(سوق بني قينقاع) باسمهم،[1] لأنهم كانوا أكثر المشتغلين به والمسيطرين عليه. وتُعد سوق بني قينقاع أهم أسواق المدينة في العصر الجاهلي، وكان الناس يأتونها من كل مكان وتزدحم بهم باستمرار، وكان الناس يتبايعون فيها ويلتقي فيها الشعراء والأدباء، وكان لبعض العرب من الأوس والخزرج نشاط تجاري فيها، مع وجود أسواق صغيرة خاصة بهم، مثل سوق (مزاحم)،[2] إلا أن أسواق المدينة وتجارتها بصفة عامة كانت أقلّ من مكة بكثير.

وتمتاز المدينة عن مكة بمنتجاتها الزراعية من التمور وغيرها، ما جعل الأعراب يقدمون إليها لشراء هذه التمور، كما أن أهل مكة وغيرهم يأتون إلى المدينة لشراء التمور والمنتجات الزراعية الأخرى، وبعض المصنوعات البسيطة، وذلك ما أوجد

(١) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج١/ ٣٠٤.

(٢) السمهودي، وفاء الوفاء، ج٤/ ١٣٠٦.

نشاطاً تجارياً ملموساً في المدينة أواخر العصر الجاهلي، وكان اليهود في المدينة يسيطرون على رؤوس الأموال ويقرضون الناس بالربا وكانت الأموال تساعدهم في السيطرة والنفوذ داخل المدينة.

وللأوس والخزرج دور في اقتصاديات المدينة، إلا أن دورهم الزراعي كان أقوى من التجارة.

وحينما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة المنّورة كان معظم المهاجرين معه من قريش وفيهم نزعة التجارة، فكان الكثير منهم ما إن يصل إلى المدينة حتى يسأل عن السوق، فيشتري ويبيع بحثاً عن الرزق، فعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لما قدم المدينة آخى الرسول بينه وبين (سعد بن الربيع) فقال سعد ابن الربيع: إني من أكثر الأنصار مالاً، وسوف أقسم مالي بيني وبينك، وانظر أي زوجتيَّ هويت نزلت لك عنها، فإذا حلّت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن بن عوف: لا حاجة لي بذلك، ولكن هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق بني قينقاع، ثم إن عبد الرحمن بن عوف أخذ يتردد على السوق حتى جمع مالاً كبيراً ثم تزوج.[1]

وكان عمر رضي الله عنه ممن يتاجر في الأسواق بعد الهجرة، حتى

---

(١) انظر: رواية البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، حديث رقم: ٣٩٣٧.

أنه حين فاته حديث رسول الله قال لمحدثيه: (ألهاني الصفق بالأسواق).[1]

وحينما يأمر الرسول أصحابه بالصدقة كانوا ينطلقون إلى الأسواق للعمل ولو أُجراء، يقول أحد الصحابة (كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل فيصيب المد وإن لبعضهم لمائة ألف).[2]

وقد أحسّ الرسول ﷺ بسيطرة اليهود على التجارة في المدينة عن طريق سيطرتهم على سوق بني قينقاع، فأراد ﷺ أن يجعل للمدينة سوقاً آخر بعيداً عن سيطرة اليهود، فضرب رسول الله قباء في موضع (بقيع ابن الزبير) فقال هذا سوقكم، فأغاظ هذا العمل اليهود وأحسوا بخطر هذا السوق ومنافسته لهم، فجاء كعب بن الأشرف فدخل القبة وقطع أطنابها، فقال رسول الله ﷺ: لا جرم لأنقلها إلى موضع هو أغيظ من هذا، فنقلها إلى موضع سوق المدينة، ثم قال: (هذا سوقكم، فلا ينقص منه أو لا يضيق، ولا يؤخذ فيه خراج).[3]

منع الرسول ﷺ أن يؤخذ على أحد كراء في سوق المدينة

---

(١) صحيح البخاري، ج٣/ ١٩.

(٢) صحيح البخاري، ج٣/ ٥٢، ويفهم من الحديث أنهم اغتنوا بعد ذلك حتى وصل بعضهم إلى مائة ألف درهم أو دينار.

(٣) السمهودي، وفاء الوفاء، ج٢/ ٧٤٩؛ عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج١/ ٣٠٤؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٨.

الجديد مما سبب ازدهاره وكثرة الوافدين إليه، كان اختيار الرسول لهذا السوق موفقاً، حيث كان بمثابة المدخل للمدينة للقادمين من جهة الشام أو من مكة واليمن أو من مواطن القبائل المجاورة الأخرى، ما جعل سوق المسلمين يتلقى الوفود والتجار حال وصولهم إلى المدينة، وقبل وصولهم سوق بني قينقاع، الأمر الذي أغضب اليهود، ولاشك أن لهذا العمل دوره في ازدهار التجارة والبيع والشراء بين المسلمين وغيرهم وتحريك الجانب الاقتصادي لديهم.

وزادت التجارة في سوق المسلمين بالمدينة تدريجاً؛ نتيجة نشاط المهاجرين الذين كان أغلبهم من قريش والتجارة تجري في عروقهم، فكان أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ ممن يعملون في البيع والشراء، وكان عثمان رضي الله عنه وطلحة بن عبيد الله ممن يبيعون (البُـر) في سوق المدينة.

وكان الرسول يمر على البائعين في سوق المدينة ويشتري منهم ويحذرهم من الغش، وقد عُرف الزبير بن العوام رضي الله عنه تاجراً واشتهر في أسواق المدينة بذلك، وقيل له يوماً بم أدركت في التجارة ما أدركت؟ فقال: لم اشتر معيباً ولم أَرُدْ ربحاً والله يبارك لمن يشارك.[(١)] وقد كان الزبير يشارك في رحلات تجارية من المدينة إلى الشام أيام الرسول، فقد لقي الزبير رسول الله

---

(١) الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص٦٩٨.

أثناء رحلة الهجرة في ركب من المسلمين كان الزبير معهم وهم تجار قافلون من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاء.[١] وقد كان الكثير من الصحابة يرحلون في قوافل تجارية إلى الشام بعد الهجرة النبوية.

وحدث أن قدمت إلى المدينة تجارة من الشام والرسول ﷺ قائم يخطب على المنبر يوم الجمعة، فانصرف الناس عن الرسول وذهبوا إلى العير حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً فنزل قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة].[٢]

وقد كان بعض الصحابة ومنهم طلحة بن عبيد الله غائباً في تجارة إلى الشام، فقدموا بعد أن رجع رسول ﷺ من غزوة بدر، فضرب لهم بسهم من غنائم غزوة بدر،[٣] كما أنه أهدى من تجارته ثياباً بيضاً للنبي ﷺ وهو في طريق الهجرة، فدخل بها رسول الله ﷺ المدينة.[٤] وكان كثير من الأعراب فيما حول المدينة يقدمون إليها لشراء التمور وبيع ما لديهم من إنتاج

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٢٤٩. (وانظر موضوع الهجرة النبوية).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب البيوع باب فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، ج٢/ ٣.

(٣) انظر: ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٥٠٩.

(٤) ابن أبي شيبة، المغازي، ص١٥٢.

كالسمن والأقط ـ أي الجُبْن ـ والأغنام والإبل، فكان للأعراب فيما حول المدينة دور كبير في تنشيط التجارة فيها.[(١)]

وقد كانت أسواق المدينة كغيرها من أسواق الحجاز تعرض فيها مختلف أنواع السلع سواء منها المنتجة محلياً أو المستوردة من بلاد أخرى كالشام وغيرها.

وتمتاز أسواق المدينة عن غيرها بكثرة ما يعرض فيها من إنتاج زراعي من تمر وحبوب وغيرها من إنتاج المدينة، بالإضافة إلى سلع أخرى كالجلود والسلاح ومختلف أنواع الطعام، وتعرض فيه الإبل والغنم والخيل للبيع وسائر الأنعام، ولها أماكن مخصصة من السوق، فقد كان عبد الله بن عمر ﵁ ممن يبيعون الإبل في (البقيع).

وقد عرفت السمسرة في المدينة أيام الرسول ﷺ، وهي الدخول بين البائع والمشتري، وكانوا في سوق المدينة يسمون السماسرة، فقد ورد في حديث عن أحد الصحابة قال (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نسمى السماسرة، فقال يا معشر التّجار إن الشيطان والإثم يحضران البيع فشوبوا بيعكم بالصدقة)،[(٢)] فدلّ على ذلك تسميتهم بالسماسرة وأن الرسول سماهم التجار.

---

(١) انظر: عبد العزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر النبي ﷺ، ص١٢٦.

(٢) رواه الترمذي في سننه، ج٢/ ٢٥٩.

والرسول ﷺ رغم انشغاله بالجهاد في سبيل الله إلا أنه أخذ يراقب أسواق المدينة بنفسه ويصدر توجيهاته لمن يرتاد السوق، فقد زار السوق مرة، ووجد عند أحد البائعين طعاماً فأعجبه حسنه فأدخل رسول الله ﷺ يده في جوفه فأخرج شيئاً ليس بالظاهر فأفف لصاحب الطعام ثم قال: ((لا غش بين المسلمين، من غشنا فليس منا)).(١)

وكانت للرسول ﷺ توجيهات كثيرة سار عليها المحتسبون فيما بعد، وكانت أساساً للبيوع في الإسلام كما هو وارد في كتب الحديث والفقه،(٢) وقد أخذ الخلفاء الراشدون والمسلمون من بعدهم أحكاماً كثيرة من زيارات الرسول ﷺ للأسواق، فكان أبو بكر رضي الله عنه يراقب الأسواق بنفسه، وكان عمر رضي الله عنه يراقب الأسواق، ويعيّن من يراقب معه في حضوره أو في غيابه.(٣)

التنمية الزراعية

الزراعة من أهم الحرف التي عرفها الإنسان وأقدمها، وذلك لأنها تسدّ حاجة طبيعية لدى الإنسان فهي أهم المصادر

---

(١) رواه الترمذي في سننه، ج٣/ ٦٠٦، ورواه الدارمي في سننه، ج٢/ ٢٤٨.

(٢) راجع: ابن قدامة، المغني، (٤ و ٥ و ٦)؛ فتاوى ابن تيمية، المجلد التاسع والعشرون، الفقه (البيع).

(٣) د. عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر النبي ﷺ، ص١٢٦ ـ ١٣١.

الأساسية، يتم عن طريقها تأمين الغذاء للإنسان، كما أنه عن طريقها يتم تأمين بعض الحاجات اللازمة للإنسان في صناعات أخرى ضرورية، تعتمد في خاماتها الأولية على الزراعة. ومن المعروف أن الزراعة في أي مكان أو زمان تتأثر بعوامل عدة منها عوامل بشرية ومنها طبيعية، إضافة إلى الأنظمة والتشريعات المرعية، ومنطقة الحجاز كما هو معروف منطقة محددة الزراعة واسعة يسكنها العرب بالدرجة الأولى كما تسكنها عناصر أخرى كاليهود والموالي وغيرهم.

وكانت نظرة العرب للزراعة قبل الإسلام وفي الحجاز خاصة تختلف بين الأعراب البادية والحاضرة، فالعرب المتحضرون في الطائف وفي المدينة كانوا يعملون بالزراعة ولا يأنفون منها، أما أهل البادية فكانوا يحتقرون الزراعة ويسخرون من المزارعين. ولعل هناك بعض الظروف والمفاهيم التي دعتهم لذلك وكثير منها خاطئ. وحينما جاء الإسلام أخذ يشجّع على الزراعة والعمل فيها وفي غيرها من الحرف،وجعلها عبادة شريطة أن لا تصرف المسلم عن العبادات الأخرى وعن الجهاد، وقد وردت آيات قرآنية عدة فيها ذكر للزراعة ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام].

فالقرآن هنا يذكر بالزراعة، كما يدعو الإسلام المزارعين إلى دفع زكاة ما يخرج لديهم من زرع.

ويقول الله تعالى في سورة أخرى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة].

وكان أصحاب الرسول ﷺ يعملون بالزراعة في المدينة، حيث كان الأنصار أصحاب مزارع فلما قدم عليهم المهاجرون ﷺ قال الأنصار للنبي ﷺ:

«يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا النخل، قالوا: (لا). فقالوا: تكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة قالوا: سمعنا.[1]

وكان الرسول ﷺ يمنح إقطاعات لبعض الصحابة وغيرهم كي يستغلوها في الزراعة،[2] فقد أقطع الزبير بن العوام أرضاً بالمدينة استثمرها في الزراعة في حياة الرسول.[3]

---

(١) انظر: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة من هذا الكتاب.
وصحيح البخاري، ج٣/ ٦٧.

(٢) انظر: مسعود يحيى الآغا، الإقطاع الإسلامي في العصر النبوي، دراسة مقارنة مع كل من الإقطاعين الجاهلي والأوروبي في العصور الوسطى، سلسلة الجمعية التاريخية السعودية، الرياض، الإصدار الثاني، ١٤٢٧هـ.
العمري: أكرم ضياء، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في عصر النبوة، دار اشبيليا، الرياض، ١٤١٧هـ. ص١٧.

(٣) انظر: نص الإقطاع وتخريجه عند محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٣١٩.

كما أقطع علي بن أبي طالب عيوناً نواحي ينبع اشتهرت فيما بعد بكثرة إنتاجها وعمل فيها عليّ رضي الله عنه بنفسه.[1]

كذلك فإن الرسول ﷺ أمر الصحابة رضي الله عنهم باستغلال الأراضي الزراعية وشجّع على ذلك فقال ﷺ: ((من أحيا أرضاً ميتةً فله فيها عبادة، وما أكلت العانية منها فله منها صدقة)).[2] وهذا يعني أن ذلك نوع من العبادة.

كذلك حضّ الرسول ﷺ ملاّك الأراضي على استغلالها أو دفعها إلى من يستغلها، فقال ﷺ: ((من كانت له أرض فليحرثها فإن كره أن يحرثها فليمنحها أخاه فإن كره أن يمنحها أخاه فليدعها)).[3] وقد شجعّ الرسول ﷺ على استغلال الأراضي ووضع قاعدة شرعية سارت عليها الأمة من بعده في تملّك الأراضي حيث قال ﷺ ((من أحيا أرضاً مواتاً فهي له))،[4] كما ورد في حديث آخر عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول ﷺ: ((من أعمر أرضاً ليست لأحد فهو أحق)).[5]

وقد ورد الكثير من الأحاديث مما يرغّب المسلمين في

---

(١) عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٢/ ٢٢٢.
(٢) سنن الدارمي، ج٢/ ٢٦٧؛ والعانية الطير وغيره مما له روح.
(٣) سنن الدارمي، ج٢/ ٢٧٠.
(٤) صحيح البخاري، ج١٠/ ٨٤.
(٥) صحيح البخاري، ج١٠/ ٨٦.

الزرع، حتى أن البخاري (رحمه الله) جعل باباً في كتاب المزارعة سمّاه (باب فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه).

وقد ورد عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول ﷺ: ((ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة))،[1] كما روى أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((لو قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل)).[2]

تنمية التعدين

التعدين هو التنقيب واستخراج المعادن الخام من مناجمها والاستفادة منها، وحيث إن بلاد الحجاز لا تخلو من المعادن، فإن التعدين قد عرف في العصر الجاهلي ثم النبوي. ويتبين لنا ذلك من النصوص، حيث ذكر أن (أبا الحصين السُلمي) قدم بذهب من معدن، فأتى به النبي ﷺ.[3] وهم يطلقون لفظة (معدن) ويريدون به المنجم أو ما يؤخذ منه المعدن.

كما أن الرسول ﷺ أقطع (بلال بن الحارث المُزني) معادن القبيلة،[4] وهي من أعمال الفرع بالمدينة وهي جبال بين المدينة

---

(١) صحيح البخاري، ج١٠/ ٦٧.
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ج٣/ ١٩١؛ وانظر: د. عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص٨٥ ـ ٨٧.
(٣) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٤٤.
(٤) ابن سلام، الأموال، ص٣٤٨.

ويُنْبُعْ. وكتب الرسول ﷺ لبلال كتاباً بذلك، وكان من المعادن المعروفة والمستغلة منذ القدم معدن (فَرَّان)،[١] وهو لبني سليم، وهو فيما بين نجد والحجاز. وهو منجم للذهب ويسمى عند المؤرخين معدن بني سليم ويسمى حالياً (مهد الذهب)، وهي منطقة مشهورة حالياً بمناجمها شرق المدينة بما يزيد على مائة كيلو متر، وكان معروفاً في العصر النبوي، وكان هناك معدن بناحية كلاب قرب المدينة يقال له (الأحسن)،[٢] وهناك معدن بناحية الفَرْع على مقربة من المدينة يقال له (بَحْرَان)،[٣] وقد ورد ذكر له من خلال نصوص السيرة النبوية مما يدل على أنه كان معروفاً بأنه معدن وقد وصله الرسول ﷺ. يقول ابن هشام (ثم غزا رسول الله ﷺ يريد قريشاً.. حتى بلغ بحران معدن بالحجاز من ناحية الفرع).[٤] كما ورد ذكر عن معدن يقع بين مكة والطائف يقال لها (المعدن) معدن (البرم)،[٥] وتشترك قريش وثقيف في معدن البرم وربما استغلاله، وبعد الفتح النبوي لمكة وإسلام الطائف، عُرف أن هذا المعدن استمر في العطاء واستفاد منه المسلمون في الطائف وغيرها.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤/ ٣٤٥.
(٢) الفيروز آبادي، المغانم المطابة، ص٣٨٥.
(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ٣٤١.
(٤) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/ ٤٦.
(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١/ ١٥٤؛ وانظر: عبد الجبار، منسي العبيدي، الطائف، ص٢٠.

ومن المعروف أن استغلال تلك المعادن كان بدائياً نظراً لإمكانات أهل المنطقة القليلة، وصعوبة الحفر والتنقيب في تلك الأيام، لأن الأعمال كلها يدوية والخبرات قليلة،[1] ومما لا شك فيه أن تعامل الرسول ﷺ مع بعض أصحاب تلك المناجم (المعادن) فيه شيء من التشجيع، بدليل إقطاعه بعض المعادن، والإقطاع يهدف لاستثمارها والعمل فيها وتنميتها واستخراج معادنها. كما كان للتشريعات المرتبطة بأنصبة الزكاة في الركاز وتدخل فيها المناجم (المعادن)، دور في تقوية دورها الاقتصادي في حياة الأمة وتهيئة المسلمين لاستغلالها وإدراجها في منظومة الزكاة والأنشطة الاقتصادية.

تنمية الصناعات

الحدادة

كانت المدينة كغيرها من مدن الحجاز تحتوي على بعض الصناعات البسيطة وخصوصاً التحويلية، وكان العرب يحتقرون بعضاً منها، فيمتهنها الموالي واليهود بالدرجة الأولى ومن ذلك الحدادة.

وحينما جاء الإسلام حاول الرسول ﷺ أن يغير من تلك النظرة، فهو ﷺ يصف زكريا بأنه نجار، ويوصف داود في

---

(١) د. عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

القرآن الكريم بعمل الدروع وصناعة الحديد، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ (٨٠)﴾ [الأنبياء]. ثم يقول الرسول ﷺ قارناً بحديثه عن داود عليه السلام ((ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)).(١)

وقد كان خباب بن الأرت حداداً في مكة قبل الهجرة، ولم يعب عليه الرسول ﷺ، ولعله بعد هجرته إلى المدينة استمر في المهنة نفسها.

وقد استرضع الرسول ﷺ لابنه إبراهيم من امرأة أبي سيف وكان حداداً في المدينة وحدث أنه ﷺ (أتى إلى أبي سيف وكان ينفخ في كيره وقد امتلأ البيت دخاناً).(٢)

وقد اهتم الرسول ﷺ بالتسليح وإعداد القوة بعد الهجرة، وخصوصاً بعد فرض الجهاد، وهذا الأمر ساعد في ازدهار الحدادة إضافة، إلى ازدهار الزراعة بأدوات جديدة كالمحراث وغيره.

ولعل مما يلفت النظر تسمية سورة من سور القرآن الكريم بسورة الحديد، مما يدل على أهمية تصنيعه والاستفادة منه، وفيها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) رواه البخاري، في صحيحه، ج٣/ ٩.

(٢) انظر: ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٩٨.

وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢٥﴾
[الحديد].

وقد تغيرت نظرة الناس إلى هذه المهنة، ما ساعد في ازدهارها في المدينة المنورة بعد هجرة الرسول ﷺ وتغير مجتمع المدينة في نموه وحضاريته.[١]

الصياغة

اشتهرت في المدينة، وهي العمل في سبك الذهب والفضة وغيرهما من المعادن الثمينة وتحويلها إلى حلي وغيرها. وكان بعض العرب يحتقر هذه الصناعة فكان أن تخصص بها اليهود والموالي، وأثروا منها ثراء فاحشاً، وقد ذكر في سبب غزوة بني قينقاع (أن امرأة من المسلمين جلست إلى صائغ من بني قينقاع فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فعمد الصائغ إلى ربط ثوبها إلى ظهرها فلما قامت انكشفت عورتها).[٢]

وقد دلت نصوص كثيرة على سيطرة يهود بني قينقاع على الصياغة وصناعة الحلي بالمدينة، حتى أن بعض الناس كانوا

---

(١) انظر: عبدالعزيز العمري، الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، ص٢٧٣.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣/٤٨؛ وانظر: د. أكرم العُمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، القسم الأول، ص١٣٩.

يعملون لهم. وقد ورد عن علي ﷺ: (لما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدت رجلاً صواغاً من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بأذخر أردت أن أبيعه من الصواغين، واستعين به في وليمة عرسي).[١]

وكانت لدى نساء الأنصار حلي معقولة، كثيراً ما يتصدقن بشيء منها حين يدعوهن رسول الله ﷺ للصدقة.

وتعد الحلي من الترف، وليست من الحاجات الضرورية، ولذلك لم نجد حَضّاً عليها، بل ربما ورد شيء من التحذير عن الزيادة في الحلي واقتنائها أو استخدام الذهب والفضة في آنية الطعام.[٢]

ومع ذلك فإن الرسول ﷺ صنع خاتماً من فضة كان يختم به كتبه،[٣] وهذا بالطبع من عمل صواغ المدينة. وقد اقتدى به بعض الصحابة في التختم بالفضة.[٤]

الدباغة والخرازة

تقوم الدباغة على إصلاح جلود الحيوانات ومعالجتها

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، ج٣/ ١٣.

(٢) مالك، الموطأ، ص٧٩٩.

(٣) كتاب اللباس، وضع البخاري فيه ستة أبواب منها: باب اتخاذ الخاتم ليختتم به الشيء أو ليكتب به إلى أهل الكتاب، وباب لا ينقش على نقش خاتمه، ج٧/ ٥٣ ـ ٥٤.

(٤) البخاري في صحيحه، عمر بن شبة، تاريخ المدينة، ج٤/ ١١٥٩.

ببعض النباتات والصخور، ونزع الصوف والشعر منها وتنظيفها وتليينها وتبديل رائحتها بما يجعلها جلوداً صالحة للتحوّل لأدوات معينة، وهذا ما عرف بالدباغة، وصناعة الأحذية والقِرب وغيرها تتم من الجلود الخام فيما يسمى بالخِرازة.[١]

ويستعمل ثمر شجر القرظ وغيره للدباغة، وقد عرف أحد الصحابة بمسمى سعد القرظ، وذكر أنه كان يربح من جمع القرظ وبيعه، فأمره الرسول ﷺ بلزوم ذلك لما أصابه من الرزق فسمي سعد القرظ.[٢]

كما عرفت عدد من النساء المسلمات في المدينة يمارسن الدباغة والخرازة، فهذه أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب يدخل عليها رسول الله ﷺ يبلغها باستشهاد جعفر وقد (رتقت أربعين مناً) [أي أربعين جلداً مدبوغاً].[٣]

وقد ذكر عن أم المؤمنين سودة بنت زمعة (رضي الله عنها) إنها كانت تعمل الأديم الطائفي، كما أن أم المؤمنين زينب بنت جحش (رضي الله عنها) كانت تدبغ الجلود وتخرزها وتتصدق بثمنها على الفقراء.[٤]

---

(١) الزبيري، تاج العروس، ج٤/ ٣١٣.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٢/ ٥٤، حاشية على الإصابة.
(٣) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٤٨٦، ج٤/ ٣١٤؛ الكتاني، التراتيب الإدارية، ج٢/ ٥٧.
(٤) ابن حجر، الإصابة، ج٤/ ٣١٤.

وكانت (رضي الله عنها) ممن يجيد الخرازة فتنتج وتتصدق من ذلك،[1] وقد دخلت الجلود في صناعة السُّرُج ولجام الخيل وبعض المحازم المرتبطة بالسلاح مع دخولها في حاجات المزارعين، كالدلاء والسقاء وغيرها. ومن المعروف في زمن النبي ﷺ زيادة الاحتياج لما يرتبط بالسلاح والخيل والزراعة، بعد هجرة النبي ﷺ. وهذا أدى إلى ازدهار صناعة الدباغة والخرازة، إضافة إلى أن عمل عدد من نساء أهل البيت في هذه الصناعة شجع الكثيرين على مزاولتها وتعلمها. وكون نساء من أمهات المؤمنين ينتجن ويساهمن بدور ولو بسيط في الإنتاج بمعرفة الرسول ﷺ وإقراره أدى إلى تشجيع الآخرين على الإنتاج والعمل والتأسي بأمهات المؤمنين سيدات المجتمع المسلم. وكان الرسول ﷺ كما هو معروف في مهنة أهل بيته يرقع ثوبه ويخصف نعله ولا يترفع عن العمل الشريف.

النسيج

النسيج والخياطة حرفتان متكاملتان تدعم إحداهما الأخرى، فالخياطة لابد لها من نسيج مسبق والنسيج لا تتم الفائدة منه إلا بالخياطة في الغالب، يقول ابن خلدون: (هاتان الصناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرّفه)،[2] ثم يقول: (وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما

(١) د. عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص١٢٦ ـ ١٣١.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص٤١١.

أن الدفء ضروري للبشر في العمران المعتدل. وأما المنحرف إلى البحر فلا يحتاج أهله إلى دفء).[1]

والنسيج حرفة ضرورية احترفها الناس منذ القدم لإيجاد الأقمشة الخاصة بالملابس، كما أنها ضرورية لوجود حاجيات أخرى من الأثاث كبيوت الأعراب (الخيام)، أو البُسُط وما إلى ذلك من الضروريات. وعند دراستنا للغزل والنسيج في أيام الرسول ﷺ فلا بد من معرفة لإمكانات تلك البلاد من توفر المواد الخام للنسيج في بيئتها، وتوافر الأيدي العاملة، التي تقوم بعمل النسيج، مع الخبرة الفنية والمهارة اللازمة لهذه المهنة، وإن كانت محدودة مقارنة بغيرها.

كان (الصوف) متوفراً بكثرة نظراً لوفرة الثروة الحيوانية، وتتم الإستفادة من هذا الصوف والقيام بغزله،وكانت النساء يقمن بالنسيج في المدينة زمن الرسول ﷺ، فقد ورد في حديث رواه البخاري: (عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة ببردة. قال: أتدرون ما البردة؟ فقيل له: نعم هي الشملة منسوج في حاشيتها قالت: يا رسول الله إني نسجت هذه بيدي أَكْسُوكَها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فخرج إلينا وإنها إزاره، فقال رجل من القوم: يا رسول الله أكسنيها، فقال: نعم، فجلس النبي ﷺ في المجلس ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه فقال

---

(١) مصدر سابق، ص٤١٢.

له القوم: ما أحسنت سألتها إياه، لقد علمت أنه لا يرد سائلاً، فقال الرجل والله ما سألته إلا لتكون كفني يوم أموت، فكانت كفنه).[1] وقد وضع البخاري باباً لهذا الحديث سمّاه (باب ذكر النُسّاج).[2] ويدل هذا الحديث على إجادة بعض النساء للنسيج في المدينة، وأنهن كن يقمن بذلك وينتجن بعض الملبوسات المنسوجة، وقبول الرسول ﷺ هدية المرأة النساجة فخر وتشجيع لها، ولمن يزاول مثل مهنتها في مجتمع المدينة. وقد أشار القرآن إلى الاستفادة من الأصواف، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل].

(والمِغْزَل) هو: ما يفتل به الصوف بحيث يحول إلى خيوط صوفية ثم تنسج في ما بعد، وقد ورد ذكر (الغَزْل) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢﴾ [النحل].[3]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، ج٣/ ١٤.

(٢) صحيح البخاري، ج٣/ ١٣.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن، ج٢/ ١٠٧٢؛ الشوكاني في فتح القدير، ج٣/ ١٩٠.

وقد وجد رجال يجيدون الحياكة والنسيج، بدليل ما ورد عن سنان بن سعد رضي الله عنه (قال: حكْتُ للنبي ﷺ جُبة من صوف وجعلت حاشيتها سوداء فلمّا لبسها قال: انظروا ما أحسنها وما أبهجها فقام إليه إعرابي فقال يا رسول الله هبها لي قال: فكان إذا سُئل شيئاً لم يبخل به فدفعها إليه وأمر أن تحاك له جبة أُخرى فمات وهي في المحاكة).[1]

وقد وردت بعض الآثار تدل على أن بعض الصحابة كان يعمل الخز، وهو نسيج يعمل من (إبريسم) وصوف، وذكر من هؤلاء الزبير بن العوّام وعمرو بن العاص.

ولعل مما يدل على تشجيع هذه المهنة ورود آثار عدة عن أمهات المؤمنين ترغّب المسلمين في تعليم فتياتهم ونسائهم الغزل حيث كانت أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) تغزل باستمرار فقيل لها عن ذلك فقالت: إن المغزل يطرد الشيطان ويذهب بحديث النفس.[2] وفي هذا أيضاً إنتاج مفيد لصاحبه وللمجتمع، وأمهات المؤمنين تربية الرسول ﷺ.

وكانت أعمال النسيج في المدينة تسد الحاجة لبعض الملبوسات البسيطة، وكان الصوف غير المُصّنع يستفاد منه في أشياء أخرى كالفرش والوسائد، فقد بعثت امرأة من الأنصار إلى

(١) الكتاني، التراتيب الإدارية، ج٢/ ٥٩.

(٢) الكتاني، التراتيب الإدارية، ج٢/ ١١٩ ـ ١٢٠.

النبي ﷺ بفراش محشو بالصوف، فقال النبي ﷺ لعائشة ردّيه (مخافة أن ينام عن صلاة الليل)،[1] نتيجة لليونة الفراش.

كما أن الحبال ضرورية في الحلِّ والسفر، وكانت تصنع من الصوف والجلود،وتستخدم بعض الأشجار والنباتات لصناعة الحبال، وهي ما يسمى (المَسَد) وقد وردت في سورة المسد في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [المسد].

والمسد: (شجر يدق كما يدق الكتان فتفتل منه الحبال).[2]

وكان بعض الصحابة يصنعونها من ليف النخل، وقد اشتهر عن بعضهم التبرع بها في الغزوات، كما أنهم كانوا يصنعون بعض الأثاث من الصوف كالبسط والسجاجيد، وكانت بدائية بسيطة تنسج مما يتوفر من أصواف الماعز وغيرها من الأصواف الخشنة.

وكانت البسط معروفة في المدينة أيام الرسول ﷺ، وكان ﷺ يضطجع على حصير فيؤثر في جلده، فقال له عمر بن الخطاب: بأبي وأمي يا رسول الله ألا آذنتنا فنبسط لك، أي نضع البسط فقال ﷺ ما لي وللدنيا.[3]

---

(١) الذهبي، السيرة النبوية، ص٣٣١.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن، ج٢/ ٢٠٤٥؛ الشوكاني، فتح القدير، ج٥/ ٥١٢.

(٣) الذهبي، السيرة النبوية، ص٣٢٩.

الـخَـواصَـة

حرفة اشتهرت في المدينة في زمن الرسول ﷺ، وهي نسج بعض الأدوات والأثاث من خوص النخيل، وكانت المدينة بلداً زراعياً اشتهر بالنخيل، وقد استفيد من جريد النخيل في عمل الخوص، فكان الخوص ينسج منه بعض الأشياء كالحصر التي كان الرسول ﷺ يستعملها في بيته وينام عليها، حتى أثّرت في جلده،[1] وكان الأنصار في المدينة يعملون الخوص، وسلمان الفارسي رضي الله عنه اتّخذها حرفة يأكل منها، وقد استمر سلمان الفارسي رضي الله عنه في الخواصة بعد أن أصبح أميراً على المدائن، فكان يقول: إني أحب أن آكل من عمل يدي، وذلك امتثالاً لما أخبر به الرسول ﷺ.[2]

وكانت بعض النساء في عهد الرسول ربما تغزل الخوص وتنسجه في المسجد، ما يدل على تشجيع هذا النوع من الإنتاج، وخصوصاً حين نعرف نظافة الخوص وطيب رائحته.

وقد استفيد من ليف النخل في صنع الحبال، فقد ورد عن الرسول ﷺ أنه كان في خيبر على حمار خطامه من ليف.[3]

---

(١) انظر: الذهبي، السيرة النبوية، ص٣٢٩.

(٢) انظر: عبد العزيز العمري، الولاية على البلدان في عصر الراشدين، ص١٧٧؛ ابن سعد، الطبقات، ج٤/١٨.

(٣) الخراعي، تخريج الدلالات السمعية، ص٧٣٧.

واستفيد من الليف في حشو الوسائد والفرش، يقول عدي ابن حاتم: إني مضيت مع رسول الله ﷺ حتى دخلت بيته فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليَّ فقال اجلس على هذه.[1] ويذكر أنس أنه دخل على الرسول ﷺ وتحت رأسه مرفقة حشوها ليف.[2]

كل هذه الأنواع من إنتاج المنسوجات من خامات متنوعة وردت فيها شواهد من سنة الرسول ﷺ، ما يدل على أنها أنتجت في وقت حظيت بتشجيع من الرسول ﷺ كدعم مادي للأفراد، وحاجات واقعية وتنمية اقتصادية لمجتمع المدينة المسلم.

الخياطة[3]

هي تفصيل الأقمشة والمنسوجات وتقطيعها قطعاً مناسبة للبدن، ثم وصل تلك القطع بعضها ببعض بواسطة الخياطة بالإبرة أو غيرها.

والحاضرة يهتمون بالملابس وشكلها أكثر من غيرهم، يقول ابن خلدون: (وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً،

---

(١) انظر: وفادة عدي بن حاتم ضمن الوفود من هذا الكتاب.

(٢) الذهبي، السيرة النبوية، ص٣٢٨.

(٣) وضع البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع، باب ذكر الخياط، ج٣/ ١٣.

وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها). [1]

وقد كانت الخياطة معروفة ومشتهرة في المدينة زمن النبي ﷺ، ووجد أناس يتخذون من الخياطة صنعة لهم يكتسبون من ورائها وقد وضع البخاري رضي الله عنه في صحيحه باباً سمّاه باب (ذكر الخياطة)، وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس بن مالك رضي الله عنه فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى الطعام). [2] الحديث، ويستدل من هذا الحديث على وجود خيّاط يعمل بهذه الحرفة أيام الرسول، كما لا يفوتنا أن هنا توجيهاً نبوياً كريماً، حيث كان العرب يحتقرون أهل الصنايع ومنهم الخيّاط، فاستجاب الرسول ﷺ لدعوته، ليذهب ما في نفوس الناس من احتقار لأهل الصنايع عموماً، وتشجيع لهم على الأعمال المنتجة التي تسد جزءاً من حاجة المجتمع.

وكان الرسول ﷺ كثيراً ما يقوم برقع ثوبه بنفسه فقد سُئلت عائشة (رضي الله عنها) عن رسول الله ﷺ فقالت: (كان رسول الله ﷺ إذا كان في بيته يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته). [3]

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق، ص٤١١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، فتح الباري، ج٢/ ٦٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب ذكر الخياط، ج٣/ ١٣؛ وانظر: الذهبي، السيرة النبوية، ص٣٢٤.

وهذا تشجيع على العمل والاكتفاء وقيام الإنسان بحاجاته تربية للذات على الإنتاج وعدم الكسل.

تنمية الحيوانات وتربيتها

يقول الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل].

هذه الآيات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم في سورة النحل تدل على فوائد الإنسان من تربية الحيوانات أو (الأنعام)، وأن الإسلام راعى كل ما يفيد الإنسان من الأنشطة الاقتصادية.

ومن المؤكد أن من ذلك الاعتناء بتربية الأنعام ورعيها وتنميتها، وكان من الحرف التي عرفتها المدينة في عصر الرسول ﷺ.

راعــي الغنــم

يعتبر رعي الغنم من الحرف الرئيسة في حياة الناس منذ القدم. وقد ارتبط رعي الغنم في أذهان الناس بالنبوة والأنبياء، حيث كان الأنبياء رعاة أغنام قبل أن يرسلهم الله للناس، ومروا بتجربة رعي الغنم واستفادوا منها.

فقد ورد في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((ما بعث الله نبياً إلاّ ورعى الغنم))، فقال أصحابه وأنت يا رسول الله؟ قال ﷺ ((كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)).[1] ومن هذا الحديث يتبين لنا أن رسول الله ﷺ حين كان بمكة قبل البعثة اشتغل لفترة من الزمن راعياً للغنم، كما أنه أخبر أن غيره من الأنبياء أيضاً قد رعوا الغنم، وقد جعل الناس ينظرون لهذه المهنة باحترام خاص، ويعدونها من أشرف المهن وأنزهها.

وقد اعتنى الإسلام بتنظيم زكاة بهيمة الأنعام وتقييمها وتحديد أنصبتها مما يعني أنها أحد أهم موارد الاقتصاد.

كانت هناك مجموعات من الأغنام تخرج من المدينة للرعي، ثم تعود إليها في آخر النهار، حيث يستفيد أهلها من ألبانها في المساء، ثم تعود للرعي مرة أخرى في الصباح، وكانت هذه المجموعات تسمي (السِّراح)، وكان للمدينة في عصر الرسول ﷺ وأثناء وجوده بها سَرْح يخرج للرعي خارج المدينة ثم يعود في آخر النهار إليها، وكانت هذه الأغنام تساهم في تأمين الألبان التي وردت أحاديث كثيرة في فضلها، والتشجيع عليها، وبالتالي زاد الاهتمام به وإنتاجه واستهلاكه.

---

(١) البخاري في صحيحه، ج٣/ ٤٨.

وحدث أنه حين قدم الرسول ﷺ من غزوة العشيرة في السنة الثانية من الهجرة أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له (سَفْوان)،(١) من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر ولم يدركه، وقد سميت بغزوة (بدر الأولى).

ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]، وكان للرسول ﷺ سبع منائح من الغنم والماعز يرعاهن أيمن بن أم أيمن يستفيد من ألبانها.(٢)

وقد نهى رسول الله ﷺ أن يحلب أحد ماشية غيره إلاّ بإذنه محافظة على هذه الثروة لأصحابها، فقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يحلبن أحد ماشية امرئٍ بغير إذنه، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته، فتكسر خزانته فينقل طعامه، فإنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعمتهم، فلا يحلبن أحد ماشية أحد إلاّ بإذنه)).(٣)

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢/ ٦٠٠؛ السهلي، الروض الأنف، ج٣/ ٢٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج٢/ ٣٦٤؛ وانظر: الزبيدي، تاج العروس، ج٢/ ١٦٣. (وسفوان الأرجح أنه واد بين المدينة وبدر لم يحدد بدقة، انظر: عاتق غيث البلادي، معجم الأماكن الواردة في السيرة، ص١٥٨).

(٢) الطبري، تاريخه، ج٣/ ١٨٤.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، ج٣/ ٩٥.

وكان الرعاة يصطحبون معهم الكلاب التي تساعدهم في حماية أغنامهم من الذئاب، كما تساعدهم على تجميع هذه الأغنام عند الحاجة، وقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ (من أمسك كلباً فإنه ينقص كل يوم من عمله قيراط إلاّ كلب حرث أو ماشية، وفي رواية إلاّ كلب غنم أو حرث أو صيد). [1] وفي هذا رخصة لمربي الأغنام.

والاهتمام بالثروة الحيوانية وتنميتها وحث الرسول ﷺ على الاستفادة منها ومن إنتاجها من أهم الدوافع للمجتمع المدني بعد الهجرة لمزيد من الاهتمام بهذه الثروة الاقتصادية التي تساهم في سد حاجة المجتمع من الطعام بلحومها وألبانها، ومن اللباس والمتاع بجلودها وأصوافها وأوبارها، تبعاً للإشارات الواردة في آيات القرآن الكريم، كما أن تسمية سورة من سور القرآن بسورة (الأنعام) يبين أهميتها في الحياة الإنسانية.

الجمع والاحتطاب

كان على رأس الأشياء التي تجمع ويستفاد منها (الحطب)، وكان وسيلة رزق لبعض الناس، حتى أن الرسول ﷺ قال: (لأن يأخذ أحدكم أحبُلاً فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكف الله بها

---

(١) البخاري، فتح الباري، ج١٠/ ٧٠.

وجهه خير من أن يسأل الناس أعطي أم منع).[1] وهذا النوع من الاحتراف لا يتطلب وجود رأس مال، ولا يحتاج الرجل فيه إلى أكثر من فأس وحبل، وقد لا يحتاج إلى هذه في بعض الأنواع من الجمع، وهذه الحرفة من أبسط الحرف لإيجاد مورد رزق يُعز الإنسان ويغنيه عن الناس وهو هدف شرعي.

كما أن جمع العشب وبيعه للصاغة كان سائداً في المدينة زمن الرسول ﷺ، وكان هناك من الصحابة من يجمع (الإِذخِر) ويبيعه، وهو نبات أخضر طيب الرائحة.

وقد وضع البخاري باباً في صحيحه سمّاه (باب بيع الحطب والكلأ)،[2] وكان جماعة من الأنصار يحتطبون الحطب ويبيعونه ويشترون بثمنه طعاماً يتصدقون به على أهل الصفّة،[3] وكان ﷺ يأمر المحتاجين بالاحتطاب والبيع فهو خير من المسألة، فقد جاءه أحد الأنصار فشكى إليه الحاجة فقال له الرسول ﷺ: ((انطلق وأحضر ما تجده في بيتك))، فجاء الأنصاري ببساط وقدح فباعهما الرسول ﷺ بدرهمين وأعطاه إياهما وقال له اشترِ بدرهم طعاماً لأهلك وبدرهم فأساً ثم ائتني ففعل ذلك ثم جاء للنبي ﷺ فقال له: ((انطلق إلى الوادي واحتطب ثم ائتني بعد

---

(١) رواه البخاري، فتح الباري، ج١٠/١١٩؛ ومالك في الموطأ، ص٤٧.

(٢) انظر: فتح الباري، ج١٠/١١٨.

(٣) د. أكرم العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة، القسم الأول، ص١٠١.

عشرة أيام))، ثم أتى هذا الأنصاري بعد العشرة، وقد استغنى، فقال له النبي ﷺ: ((هذا خير لك من أن تأتي يوم القيامة في وجهك نكتة من المسألة)).[1]

وهذه التوجيهات النبوية لهذا المحتاج، هي توجيه لعامة الناس في الأمة إلى يوم القيامة، بعزة النفس والغنى عن الناس والعفاف عن المسألة، والسعي للإنتاج، بما يسد حاجته ويغنيه عن الخلق، وهذا يعني دفع الإنسان للإنتاج، بما يستطيع، وأن لا يكون عالة على الآخرين، ولا يوجد في أي أمة من أمم الأرض غير المسلمين مثل هذه التعليمات النبوية الشرعية الإلهية لدفع الإنسان للإنتاج والعمل.

الأُجـراء

من المعروف أن الأجير هو الشخص المستأجر للخدمة، والعمل، وتختلف نوعية العمل الذي يتفق الأجير مع صاحبه عليه من خدمة أو حمالة أو سقاية، أو غير ذلك من الأعمال الشائعة التي يطلب أصحابها الأجراء ليقوموا عنهم بالعمل.

وقد كانت الإجارة معروفة في المدينة أيام الرسول ﷺ. وقد وضعت كتب الحديث أبواباً للإجارة، وذكرت ما ورد فيها من أحاديث عن الأجير في العصر النبوي.[2]

---

(١) انظر: الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص٧١٦.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإجارة وما تضمنه من أبواب، فتح الباري، ج١/٣.

وكان بعض الصحابة ﷺ يحملون للناس الأشياء على ظهورهم مقابل أجر محدد، فمنهم من يأكل من الأجر ومنهم من يتصّدق به.

وكان بعض الصحابة يحب أن يؤدي صدقة حينما يدعوهم الرسول ﷺ لذلك، فلا يجد مالاً فيذهب إلى السوق يحمل للناس مقابل أجر، فيأتون به إلى النبي ﷺ ويتصدقون به، فقد ورد في حديث رواه أبو مسعود الأنصاري ﷺ قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل، فيصيب المدّ وإن لبعضهم لمائة ألف)،[١] ويقصد أنهم كانوا فقراء ثم أصبحوا من أصحاب مئات الألوف بعد ذلك.

وقد كان من الصحابة رجل فقير يدعى (أبا عقيل) واسمه حُشْمَان، وقيل غير ذلك، ويلّقب بصاحب الصاع، إذ كان ينقل الماء على ظهره ويتصدق بنصف الأجرة. وقد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الصدقة فجاءه أبو عقيل بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة وقال للرسول: لقد حملت الماء على ظهري بصاعين أحدهما لي ولعيالي، والآخر جئت به صدقة، فتضاحك المنافقون وقالوا: إن الله لغني عن صدقة هذا، فنزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

---

(١) صحيح البخاري، فتح الباري، ج١٠/١٦.

[التوبة]،[1] وقد حثّ رسول الله ﷺ على إعطاء الأجير أجره فقال النبي ﷺ: ((قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أُعطي بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره)).

وهذا تهديد من الله ورسوله ووعيد للناس لمن لا يعطون الأجراء أجورهم أو يبخسون منها شيئاً.

وباب الرزق من خلال العمل في الإجارة باب شريف، أقره الرسول ﷺ وطبقه الصحابة في حياتهم بتشجيع من النبي ﷺ، وفي ذلك تنمية للذات وعز وكرامة للإنسان.[2]

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج٢/٣٨٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤/١٣٠؛ ابن حجر، الأصالة، ج٤/١٣٦؛ ابن كثير، تفسير القرآن، ج١/٢٩٧.
(٢) د. عبد العزيز العُمري، الحرف والصناعات في الحجاز، ص٢٩٣ ـ ٢٩٥.

الفهرس